عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 76 / 1 آب 2016

عدسة من دير الزور

ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

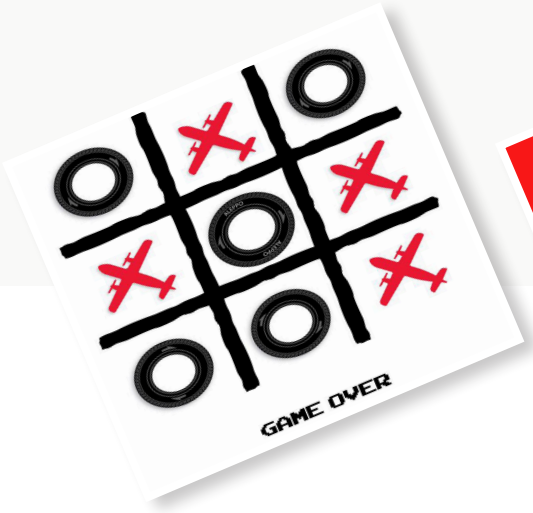

#ملحمة_حلب_الكبرى

تفتح الإنجازات التي حققتها معركة حلب حتى الآن باباً عريضاً للتفاؤل لم يعشه جمهور الثورة منذ زمن. ولكن الأهم هو ما تعيد التأكيد عليه من بدهياتٍ يكرّرها الجميع كلاماً ولكنها قلما تتحوّل إلى وقائع كما حدث الآن؛ وهي وحدة الفصائل في عملٍ جماعيٍّ، وتنظيم المهامّ وتوزيع الأدوار، وتجاوز النظرة المحلية الضيّقة، فقد شارك في المعارك أبناء حلب وإدلب وحمص وحماة ودير الزور والرقة.

لا جديد نظرياً في هذه الوصفة سوى أننا لا نطبقها إلا في ما ندر، محمّلين بلدنا وأهلنا وأنفسنا عناء سلوك الطرق المتعثرة المكلفة دماً، فلا ننهض من لهونا غير المسؤول وسباتنا الخطر وتناحرنا السخيف إلا عندما توشك الكماشة أن تطبق علينا فننتفض لكسرها بعزم. وللأسف، لقد عوّدْنا أنفسنا وجمهورنا على الخيبات المتناوبة نتيجة هذا السلوك المتقلّب. ولكن مجمل الظروف لم يعد يسمح لنا بتكرار هذه الدورة المهلكة مرّةً أخرى. لنحترم قلوب ملايين السوريين التي خفقت تترقّب بشغفٍ أخبار قوّتنا الموحّدة في حلب، ولنحترم دعاءهم الحارّ ودموعهم الفرحة مع كلّ خطوةٍ مشيناها، ولنحترم تفاعل مئات الملايين معنا في أنحاء البلاد العربيّة والإسلاميّة والعالم، ولنحترم أولاً أطفالنا الذين أعشى عيونهم الصغيرة الدخان الأسود وأنهك سواعدهم الغضّة جرّ الدواليب!

المعركة طويلةٌ بمعاني مختلفة وسياقاتٍ متعدّدة، فإذا استطاعت الفصائل المقاتلة تحرير ما تبقى من أحياء حلب بالفعل، كما أعلنت بوضوح، تترتب عليها مسؤولياتٌ جسامٌ في تأمين السكان وضبط النزعات الانتقامية والفوضى، ثم في إدارة هذه المدينة الكبيرة بكلّ المعايير، وعدم تكرار تجربتي إدلب والرقة، وكبح مطامع أيّ فصيلٍ بالاستئثار أو الطغيان. ومن ناحيةٍ أخرى فإن معركتنا لا تنتهي عند حلب، فما زال المحاصرون يستصرخون في داريا والوعر والغوطة الشرقية من جهة، وما زالت أمامنا المهمة الكبرى في كسر النظام وإسقاطه، وتحرير الأراضي التي يحتلها تنظيم داعش.

مباركٌ أيّ نصرٍ في حلب، ومباركةٌ أيّ خطوةٍ يخطوها الثائرون السوريون فيها على طريق الحرّية والكرامة. غير أنّ علينا أن نحذر كثيراً من الغرور والتنازع والتسرّع وبرود الهمم، كما علينا أن نركّز على إيضاح صورتنا للعالم، فنحن مختلفون في العمق عمّن خرجوا في المسيرات مبتهجين لحصار 300 ألف مدنيٍّ في الأحياء الشرقية من حلب، منذ أيامٍ قليلةٍ فقط.

5-4 حلب.. من الحصار إلى التحرير؟!!

7 13% من السوريين يحتاجون إلى الأنسولين

9-8 شبّيحة في سجن عدرا!

11 الركبان... دولة الانتظار، والتقهقر كذلك

12 هل الرقة عاصمة الخلافة؟

14 جبهة النصرة قبل الارتباط وبعده

16 أيها السيّد.... العبوديّة تليق بك!

19 سيرة خلف المفتاح

الائتلاف السوريّ..
عجزٌ عن الإصلاح ودعمٌ «بالقطّارة»

معاذ طلب

في جلسةٍ حواريةٍ مفتوحةٍ لم تخلُ من المشاحنات والتوتر، اجتمع عددٌ من أعضاء الائتلاف الوطنيّ لقوى الثورة والمعارضة، في مقرّ منظمة «بيتنا سوريا» بمدينة غازي عينتاب التركية، مع عددٍ كبيرٍ من ناشطي الثورة السورية في المدينة المذكورة، تلبيةً لدعوة «تيار مواطنة» ضمن فعاليات «منتدى مشاركة»، في الخميس الثامن والعشرين من شهر تموز المنصرم.

حضر من جانب الائتلاف كلٌ من الأعضاء هادي البحرة، وفايز سارة، وموفق نيربية، ونغم الغادري، ويحيى مكتبي، ومحمد سليم الخطيب. افتتح البحرة الجلسة فتحدّث عن المسار السياسيّ والتفاوضيّ والتطورات العسكرية الحالية، وأكد عدم وجود أيّ تقدم في المفاوضات التي تقتصر على المباحثات غير المباشرة، وازدياد تعقيدات الملفات المطروحة بسبب عدم وجود نوافذ للحلّ بين القطبين، الأميركيّ المتمسك بالحلّ السياسيّ والروسيّ الذي ما يزال متمسكاً بالحلّ العسكريّ وضالعاً فيه بأعلى درجات العنف.

وفي معرض ردوده على مداخلات المشاركين التي كان أغلبها مليئاً بالانتقادات اللاذعة لعمل الائتلاف، وفساده الماليّ والإداريّ، والمحاصصات السياسية في داخله، إلى درجةٍ وُصف فيها بالمؤسّسة غير الوطنية؛ برّر البحرة ذلك بأن السوريين لم تكن لديهم الخبرة السياسية، إذ لم تكن سورية دولةً ديمقراطيةً خلال العقود الفائتة. وقامت الدول، بعد انطلاق الثورة، بتأسيس كياناتٍ سياسيةٍ تتضمن بذوراً خلافية، إضافةً إلى رسم خطٍّ أحمر يقضي بعدم التقاء المسارين (السياسيّ والعسكريّ). واستعرض محاولاتٍ لتوحيد هذين المسارين، مجهزةً بخطط العودة إلى سورية ومدعّمةً بدراسةٍ كاملةٍ ودقيقة، قوبلت بقطع الدعم عن الائتلاف بعد أن لاقت الترحيب ظاهرياً من الدول الداعمة!

وعن المبالغ التي استلمها الائتلاف أوضح البحرة أن مجموعها لم يتجاوز المائة مليون دولار منذ بداية التشكيل، وكان من المفترض أن تخدم عمل هذه المؤسّسة باعتبارها ممثلاً سياسياً، ولكنها أُجبرت -تحت ضغوط جرائم النظام ومعاناة السوريين- على دعم الفصائل العسكرية والمنظمات الإغاثية والمستشفيات. منوّهاً إلى عجز المجتمع الدوليّ عن سدّ احتياجات الشعب السوري، وإلى أن الدعم الموجّه للائتلاف يُقدّم «بالقطّارة»، وبشكلٍ لا يُحدث خللاً في التوازن المطروح دولياً.

وتحدث نيربية عن دور الائتلاف والهيئة العليا للمفاوضات في العملية السياسية، مستشرفاً عدم وجود حلٍّ قريب، في ظلّ الإدارة الأميركية الحالية على الأقل. وشرح آلية عمل ومحاولات الإصلاح الذاتية للائتلاف، وأهمية التمسك بهذه المؤسّسة التي «لا يوجد لها بديل»، ووجوب حمايتها من «التشظي». وأكّد عدم تقدم الائتلاف خطوةً إلى الأمام من دون إعادة هيكلته «ترشيقه وتوسعته»، مع احتمال عدم نجاح هذه الخطوة إلا بعقد مؤتمرٍ وطنيٍّ جامع.

وعن العملية السياسية أوضح عضو الائتلاف دور الجهات المعرقلة للحلّ (النظام، إيران، روسيا) وتمسكها بالحلّ العسكريّ، والضغوط الأوربية الساعية إلى الحصول على ضماناتٍ لمرحلةٍ انتقاليةٍ بدرجةٍ أكبر من الضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة.

وفي ردّه على تساؤلاتٍ طرحها عددٌ من الحاضرين عما إذا كان قد بقي للائتلاف أيّ دورٍ يلعبه في هذا الوقت، وتحديداً في ظلّ حصار حلب الذي ينبئ بكارثةٍ إنسانيةٍ وكسرٍ لعظم الثورة؛ أكد نيربية على تواصلهم الدائم مع الفصائل والتنسيق بينها، والسعي إلى بناء وحدةٍ عسكرية، ومطالبة دول الاتحاد الأوربيّ بالضغط على الأطراف المساهمة في حصار حلب.

أما الخطيب فتناول تشكيلة الحكومة الأخيرة ونيلها ثقة الأغلبية المطلقة من أصوات أعضاء الائتلاف، نتيجة الرغبة في نقل العمل إلى الداخل ودون «محاصصات»، منوّهاً إلى الصعوبات والتحديات التي ستواجه الحكومة الساعية إلى تثبيت أركانها وكسب الحاضنة الشعبية واستخلاص سيادةٍ مفقودةٍ بإمكانياتٍ محدودةٍ جداً. وقابل سيل الانتقادات الموجّهة إلى أداء أعضاء الائتلاف بالمطالبة بعدم توجيه الاتهامات قبل أن يتم تحديد المسؤوليات والصلاحيات، إذ إن الائتلاف شُكّل ليكون مظلةً سياسيةً فقط، لا ليكون بديلاً عن حكومة النظام.

وفي مداخلةٍ لـ«عين المدينة» طالبت المجلة مؤسّسة الائتلاف بأن تتمتع بالشفافية، وانتقدت عدم الاستجابة لمطالب الثوّار الراغبين في تغيير ممثليهم فيها، كمطالبة أبناء دير الزور باستبدال ممثل المحافظة عن المجالس المحلية.

خاص عين المدينة

حلب..
من الحصار إلى التحرير؟!!

حليم كاوا

طريق الميليشيات إلى الحصار

يُمكن اعتبار أن معركة حلب الكبرى قد بدأت عندما ظهر حسن نصر الله، قائد حزب الله اللبنانيّ، في الأيام الأخيرة من شهر حزيران الماضي وأعلن أن معركة حلب هي للدفاع عن سوريا بالكامل، وأنه سيزيد قواته في حلب، وأن على الجميع أن يتحضر لأن المعركة الحقيقية الاستراتيجية الكبرى هي معركة حلب.

وبالفعل لم تمض عدّة ساعاتٍ على خطابه حتى ظهرت نتائجه مباشرةً على الأرض، إذ اندلعت اشتباكاتٌ عنيفةٌ على جبهة الملاح القريبة من طريق الكاستيللو، الشريان الوحيد الذي يصل بين أحياء حلب الخاضعة لسيطرة فصائل المعارضة المسلحة والريف الشماليّ.

لم تكن لطريق الكاستيللو سابقاً أيّ أهمية، فهو طريقٌ ترابيٌّ سُمّي بهذا الاسم عام 2013 نسبةً إلى مطعم الكاستيللو القريب منه. كما أنه لم يكن الطريق الوحيد الذي يصل حلب بريفها، إلا أنه أصبح كذلك بعد خسارة المعارضة طريقين غيره.

معارك كبيرةٌ شهدتها منطقة الملاح، شمال الطريق، خلال الأسابيع الأخيرة؛ بين قوات النظام ولواء القدس وحزب الله وميليشيات عراقية وأفغانية من جهة، وفصائل المعارضة المسلحة كحركة نور الدين الزنكي وتجمع فاستقم كما أُمرت والجبهة الشامية وكتائب ثوار الشام وجبهة النصرة وغيرها من الفصائل من جهةٍ أخرى. وقد غلبت على هذه المعارك سمة الكرّ والفرّ، وأسفرت في النهاية عن سيطرة النظام على مزارع الملاح ومطعم الكاستيللو تحت غطاءٍ جويٍّ روسيٍّ كثيف، إذ شهدت منطقة الملاح وحندرات وطريق الكاستيللو يومياً، ولأكثر من شهرين، غاراتٍ جويةً على مدار الساعة، وصلت في بعض الأيام إلى أكثر من مئتي غارةٍ في اليوم الواحد، استعمل فيها النظام وحلفاؤه شتى أنواع الأسلحة ومن بينها القنابل العنقودية والقنابل الفوسفورية المحرمة دولياً.

كما تزامنت معارك الملاح مع معارك عنيفةٍ في معامل الليرمون وحيّ بني زيد جنوب الطريق، فأدى تقدم قوات النظام من جهة الملاح وسيطرة قوات حماية الشعب الكردية على السكن الشبابي في حيّ الأشرفية إلى محاصرة المعارضة المسلحة في حيّ بني زيد، مما اضطرها إلى الانسحاب في وقتٍ قصيرٍ ليسيطر النظام ويطبق الحصار الكامل على حلب.

معاناة المدنيين

كان للحصار وقعٌ مباشرٌ على السكان المقيمين في أحياء حلب المحاصرة، الذين يتجاوز عددهم أكثر من ثلاثمئة ألف، حسب إحصاء المجلس المحليّ لمدينة حلب. إذ افتقدت الأسواق لمواد عديدة، وخصوصاً المحروقات والخضروات والمعلبات. كما شهدت الأسعار ارتفاعاً كبيراً، فجرّة الغاز -مثلاً- زاد سعرها من خمسة آلاف ليرةٍ سوريةٍ ليتجاوز الخمسة عشر ألفاً بعد ثلاثة أيام فقط من الحصار، وقد تجاوز الآن الأربعين ألف ليرةٍ بعد مضيّ أقل من شهرٍ على الحصار.

وعانت المدينة من احتكار بعض التجار للمواد الغذائية. المجلس المحلي لمدينة حلب، وبناءً على دراسة اللجنة التموينية لأسعار المواد الأساسية الموجودة في السوق، أصدر تعميماً بعد اجتماعٍ تمّ عقده بين اللجنة التموينية والتجار والمنتجين، تضمّن لائحةً أسعارٍ تمّ اعتمادها بالمشاركة مع أصحاب الخبرات والجهات المعنية. وأكد التعميم على عدم احتكار أو إخفاء أيّ سلعةٍ أو مادةٍ غذائية. التقينا أبو يوسف، أحد القاطنين في حيّ بستان القصر، الذي أكد لنا أن نسبةً كبيرةً من التجار لم تلتزم بالأسعار المحددة للمواد، وأن الأسعار ارتفعت كثيراً بالمقارنة مع متوسط دخل الفرد في حلب، وأن الموضوع خرج عن طاقة تحمله. أما أحد التجار، الذي فضّل عدم ذكر اسمه، فقد فسّر عدم التزامه بالأسعار بأنه اشترى بعض المواد الغذائية بعد إغلاق الطريق، وبالتالي فإنه من الطبيعيّ أن يكون سعرها مرتفعاً.

بعد إطباق الحصار بدأ الأهالي باللجوء إلى وسائل جديدة، ومن أهمّها الزراعة التي انتشرت بكثرةٍ في أحياء حلب، في المنازل والحدائق وبين الركام وعلى أسطحة المباني. يقول أبو يوسف: «قمنا، أنا وأولادي، بنقل كميةٍ من التراب إلى حيّنا بستان القصر، ثم وزّعنا هذا التراب على صناديق من «الفلين» وزرعناها بأنواعٍ عديدةٍ من البذور التي يمكن أن تُزرع في مناخ حلب،

وخصوصاً الكوسا والباذنجان والبندورة وغيرها من الخضروات».

وجاء انتشار الزراعة المنزلية رغم عدم وجود أيّ خبرةٍ سابقةٍ لدى الأهالي، نظراً لأن حلب مدينةٌ اقتصادية وتجارية لم يهتمّ سكانها بالزراعة من قبل، إلا أن الحاجة أم الاختراع!

كما أطلقت بعض منظمات المجتمع المدني مشاريع لزراعة الحدائق والأراضي الزراعية، في سعي منها لمساعدة الأهالي على الصمود في وجه الحصار أكبر مدّةٍ ممكنة.

ممرّات الاستسلام

بعد إطباق الحصار أقدم النظام على عدّة خطواتٍ غريبةٍ من نوعها، كان أولها إلقاء الطيران، خلال اليومين الأولين للحصار، موادّ غذائيةً روسيةً لا تكفي بمجموعها لثلاثين شخصاً. وقد لقي هذا الفعل السخرية من السكان؛ يقول أبو جميل: «جاءت الطائرة الحربية واستهدفت حارتنا بصاروخ حربيّ، استشهد نتيجته طفل، ولم تمضِ نصف ساعةٍ حتى عاد الطيران نفسه وألقى علينا بضع مواد غذائية، وكأنهم يريدوننا ألا نموت ونحن جائعون!».

وحذرت هيئة الطبابة الشرعية بحلب الأهالي من هذه الأطعمة لاحتمال كونها مسممة، وطلبت منهم عدم التعامل مع أيٍّ من هذه المواد بأكلها أو إطعامها لأطفالهم.

ولم تمضِ ساعاتٌ قليلةٌ إلا وأعلن إعلام النظام وشريكه الروسيّ عن فتح ثلاثة ممرّاتٍ آمنةٍ للمدنيين للانتقال من الأحياء المحاصرة إلى الأحياء التي يسيطر عليها النظام، بالإضافة إلى ممرٍّ واحدٍ للمقاتلين الذين يودّون تسليم أنفسهم، بعد أن أصدر بشار الأسد «عفواً» عن حاملي السلاح إذا بادروا إلى تسليم أنفسهم وأسلحتهم خلال ثلاثة أشهر، إلا أنه لم يسلم أحد نفسه!

المدنيون أيضاً لم تكن لديهم ثقةٌ بالنظام، ولم يجرؤ أيٌّ منهم على العبور إلى الأحياء الخاضعة لسيطرته، خوفاً من الاعتقال أو التصفية أو جرّهم إلى جبهات القتال عنوةً. وأكد ناشطون وإعلاميون لـ«عين المدينة» أن النظام لم يفتح عملياً أيّ معبرٍ من المعابر التي حدّدتها وسائل الإعلام التابعة له.

تتالت ردود الفعل السياسية حول المعابر، فقال رئيس مكتب العمليات الإنسانية في الأمم المتحدة، ستيفن أوبراين: «من الضروري أن تحصل هذه الممرّات على ضمانات جميع أطراف النزاع، وأن تستخدم طوعاً. كما يجب ألا يُجبَر أحدٌ على الفرار عبر طريقٍ محدّدةٍ أو إلى وجهةٍ معينة». وشدّد ستيفان دي ميستورا، مبعوث الأمم المتحدة إلى سوريا، على أهمية منح المدنيين في حلب خيار البقاء في المدينة وعدم إجبارهم على الخروج منها. ومن جانبه أبدى السفير البريطاني ماثيو رايكروفت تشكيكه، رداً على سؤالٍ بهذا الشأن، وقال: «إذا أجازت هذه الممرّات نقل المساعدات إلى حلب فهي موضع ترحيب»، رافضاً فكرة استخدامها «لإفراغ حلب» تمهيداً للهجوم على المدينة. وتابع رايكروفت أن «أفضل ما يمكن فعله لتحسين الوضع في حلب هو وقف حملة القصف التي ينفذها النظام وحلفاؤه». وصرّحت الخارجية الفرنسية أن خطة الممرّات الآمنة في حلب ليست حلاً ذا مصداقية. وبدورها دعت اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى هدنةٍ عاجلةٍ في المدينة.

ملحمة حلب الكبرى

لم تستكن فصائل المعارضة المسلحة للحصار، فأعدّت العدة والعتاد لفتح طريقٍ جديدٍ غير طريق الكاستيللو، من الريف الجنوبيّ الغربيّ لحلب بدلاً من الريف الشماليّ. وشهدت معارك اليوم الأول لما سمّته الفصائل «ملحمة حلب الكبرى»، في 31 تموز المنصرم، اشتباكاتٍ سيطرت خلالها المعارضة على مشروع 1070 شقة ومدرسة الحكمة وتلّتي مؤتة وأحد، في طريقهم إلى معمل الإسمنت وكتيبة المدفعية اللذين يُعدّان من أكبر قلاع النظام وأشدها تحصيناً في الشمال السوريّ. ومن المتوقع أن تشهد حلب واحدةً من أكثر المعارك ضراوةً خلال السنوات الأخيرة.

وتصادف اليوم الأول لمعارك فك الحصار مع حملة #الغضب_لحلب. وشهدت جميع شوارع حلب المحاصرة حرق الأهالي وأطفالهم إطارات السيارات لحجب الرؤية عن الطيران، وبالفعل هذا ما حدث. إذ شكّل حرق الدواليب غيمةً سوداء كبيرةً فوق حلب، ما أدّى إلى منع الطيران من استهداف الأحياء المحاصرة، حين حوّل أطفال المدينة الدواليب التي أشعلوها إلى نوعٍ جديدٍ من مضادات الطيران!

كل الأنظار الآن موجّهةٌ إلى حلب، فالملحمة الكبرى لن تكون سهلةً أبداً على جميع الأطراف، وخصوصاً بعد أن بدأت فصائل المعارضة المسلحة بالحديث عن تحرير كامل حلب لا عن فكّ الحصار فقط. والأيام القادمة كفيلةٌ بأن تكشف لنا الصورة المستقبلية لحلب، أكبر مدن سورية وعاصمتها الاقتصادية.

إعداد الأرض للزراعة - من صفحة المجلس المحلي لمدينة حلب

عمر سندة
القائد الأسطورة

محمد سرحيل

في الرابع عشر من آذار عام 2016 ودّعت حلب الشهيد عمر سندة، أحد أبرز قادة الجيش الحرّ داخل المدينة، ليرحل عن الدنيا والثورة واحدٌ من أوفى وأنبل رجالاتها؛ فمن هو؟ وما البصمة التي تميّز بها عن غيره؟

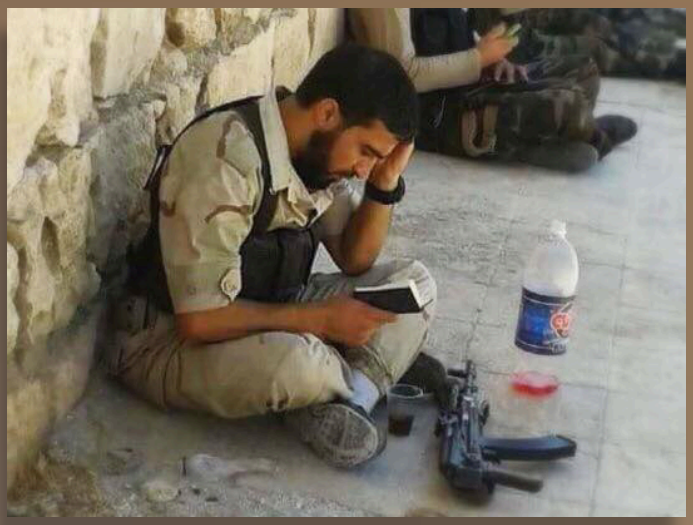

الشهيد في سطور

عمر سندة (أبو إسماعيل) ابن حيّ الكلاسة الشهير بشهامة أبنائه وعراقة عائلاته. ولد قبل 29 عاماً لعائلة معروفة بالعلم. دَرَس في المدرسة الشرعية الشعبانية وتخرّج فيها، ثمّ حصل على إجازة في الشريعة من جامعة دمشق. تنقّل في جوامع حلب بين إمام وخطيب، كما عمل في التجارة والصناعة.

خطى الثورة الأولى

دخل عمر على خطّ الثورة، وانخرط فيها بشكل مباشر للمرّة الأولى، في جنازة مفتي حلب د. إبراهيم سلقيني، الذي تحوّل تشييع جثمانه من الجامع الأمويّ إلى أشهر مظاهرة عرفتها المدينة أواخر عام 2011. هاجمَ عمرٌ مع أحد أولاد عمومته ضابطاً للنظام أمام المقبرة وأشبعاه ضرباً، رداً على اعتدائه وعناصره على المشيّعين. اعتقل إثرها لعدّة أيام، ثم أفرج عنه ليبدأ مرحلةً جديدةً من الإعداد والتجهيز.

ومع دخول الثورة في حلب فصلاً جديداً، باقتحام لواء التوحيد لما يقرب من نصف أحياء المدينة، أسّس عمر كتيبة أسود الإسلام، التي شُكلت غالبيّتها من عائلة (آل سندة) وأبناء حيّ الكلاسة، وكانت لهم اليد الطّولى في منع وقوع أيّ اعتداء على الأملاك الخاصّة أو العامّة، خلاف الأحياء الأخرى التي دخلها غير أبنائها.

قائدٌ بالفطرة

تمتّع أبو إسماعيل بصفاتٍ قياديةٍ و «كاريزما» جذابة، جمع فيها بين الحزم واللين. ومن هذه الصفات تقدّمه صفوفَ مقاتليه، ومشاركته لهم أعمال الحفر وبناء المتاريس وغيرها، أما في الأوقات العادية فتراه بينهم يجالسهم ويمازحهم، وبالكاد يمكن تمييزه عنهم! ورغم رقّة قلبه الشديدة، والابتسامة المصاحبة له معظم أوقاته، إلا أنّه قائدٌ شرسٌ لا يعرف الصّعاب ولا يهاب خوضَها.

ومن الناحية العسكرية أظهر عمر خبرةً فريدة، بحُسن إعداده وتخطيطه الإستراتيجيّ بعيدِ المدى. وكان أحد الذين تستعين بهم معظم الفصائل لخبرته وذكائه. حتى أنّ الهجوم العنيف الذي تعرّضت له الأحياء المحرّرة من مدينة حلب مؤخراً كان قد تنبّأ له وأعدّ له جيداً قبل عامين!

لم يتمكن النظام من إحراز أيّ تقدّم على جبهات كتيبته، بل تكبّد خسائر كبيرة، أشهرُها في فرع المرور والراموسة. كما أردت العديد من قنّاصة القصر البلدي! ومن ناحيةٍ أخرى اشتهرت الكتيبة بتصنيع السلاح المحلّيّ وتذخير نفسها بنفسها، معتمداً على مشاريعَ تجاريّةٍ خاصّةٍ لتمويل مقاتليه، وزراعة الخضار وتربية بعض أنواع الحيوانات بهدف تحقيق اكتفاءٍ ذاتيٍّ ولو بالحدّ الأدنى.

القويّ الأمين

تقع الجبهة التي ترابط عليها الكتيبة في مركز المدينة قرب سوق الهال، وهي منطقةٌ تجاريةٌ فيها عشرات المحال والمعامل التي تحوي بضائع تقدّر قيمتها بعشرات الملايين، وكنتُ شاهداً على تلك البضائع التي لم يحرّك ساكنٌ فيها! وقد عَرَض عليه أحد تجّار الحرب مبالغ طائلةً مقابل تسليم المنطقة، لما فيها من بضائع، إلا أنه رفض بالطبع. ومن أشهر القصص التي عُرفت عنه، وكنت شاهداً عليها أيضاً، قصة عنصرٍ وَبّخَهُ عمر وتوعّد بمحاسبته حين علم بأنه استخدم (بخة واحدة) من زجاجة عطرٍ في منزل شبه مهدّم على نقطة رباط!

الشهيد في عيون أهله

يقول والده الحاج إسماعيل، في مقابلة أجريناها معه، إنّ قدوم عمر كان فأل خيرٍ عليه، وإنه أسماه تيمّناً بالصحابيّ الجليل عمر بن الخطاب، الفاروق بين الحق والباطل، إذ كان يأمل أن يكون له من اسمه نصيبٌ في التأسّي بأخلاقه والاقتداء بمنهجه في إقامة العدل وّرد الحقوق لأهلها، وهذا ما حصل!

أما أخوه الشيخ محمد فيقول: ترك رحيله فراغاً كبيراً في العائلة التي اعتادت أن تجتمع عند عمر (الابن الأصغر) الذي ما كان يفوّت أيّ مناسبةٍ، خصوصاً الدينيّة منها؛ إذ يجمع عائلته ويقضي معها ساعاتٍ طوالاً، لا يوفّر فيها أيّ لحظةٍ للعب مع صغيرٍ أو ممازحة كبير. ويضيف إن الشهيد الراحل بذلَ الكثير من ماله الخاصّ، وباع مصاغَ زوجته ليشتري به بندقيتين روسيتين أول الثورة، ورحل ولم يترك لأهله شيئاً سوى محلٍ لبيع الهواتف المحمولة -يملكه قبل الثورة- سخّره لتمويل الكتيبة!

كثيرون مثل عمر... رحلوا، لكن ذاكرة التاريخ لا تتسع إلا لمن لاحقتهم الأضواء وعدسات الكاميرا ...

13% من السوريين مصابون بمرض السكري.. والأنسولين يختفي من الصيدليات

خاص عين المدينة

مريم احمد

يعاني المرضى في سورية من صعوباتٍ كبيرةٍ في الحصول على الأدوية، ومرضى السكري هم الأسوأ حظاً في تأمين الأنسولين الذي يحتاجون إلى تناوله بشكلٍ يوميٍّ ومستمرّ، وخاصّةً مرضى سكري الشباب الذي يعدّ من أخطر أنواع هذا المرض.

قال وزير الصحّة في حكومة النظام السابقة، نزار يازجي، لصحيفة تشرين، في لقاء نشر في 2016/4/17، إن المصابين بمرض السكريّ يشكلون 13 في المئة من السكان، وإن الواحد منهم يكلف الوزارة ما يقارب 400 ألف ليرةٍ سوريةٍ سنوياً. ومن هذا التصريح ندرك النسبة المرتفعة للمرضى، والتكلفة العالية التي تقع على كاهل المصاب بهذا المرض في المناطق المحرّرة بعد أن خرجت عن سيطرة النظام.

تعاني مدينة إدلب وريفها من نقصٍ حادٍّ في الأنسولين وأدوية تنظيم السكر في الدم، لأسبابٍ عدّةٍ أهمها قصف الطيران الروسيّ-السوريّ للمراكز الطبية وللمستشفيات؛ ما أدّى إلى تقليص عددها وخروج أكثرها عن الخدمة، فضلاً عن قلة المنظمات الطبية الداعمة للمراكز الطبية التي تعنى بمرضى السكريّ، في حين قامت الدول المجاورة بإغلاق معابرها الحدودية مع سوريا؛ ما أدّى إلى خلق مشكلةٍ كبيرةٍ دفعت المرضى إلى التنقل بين المدن والبحث عن الدواء على رفوف الصيدليات الخاوية منه.

هيثم الخالد أحد سكان ريف إدلب الجنوبيّ، ابن الثلاثين ربيعاً، مريضٌ بالسكر الشبابيّ، ويعتمد على الأنسولين منذ أكثر من عشرة أعوام، ويحتاج بشكلٍ يوميٍّ إلى جرعتين منه، فهمّه الأول تأمين تلك المادة الدوائية لضبط سكره قدر الإمكان. يقول: «أقضي نصف نهاري أبحث عن الأنسولين الذي أحتاج إليه بشكلٍ دائم. وقد تضاعف سعره 20 مرّةً عما كان، وأشتري العبوة بـ8 آلاف ليرةٍ أحياناً، وهي تكفي لمدة 10 أيامٍ فقط. والمنظمات الطبية لا توفر هذه المادة للجميع».

وتشكو السيدة فاطمة من فقدان تلك المادة، قائلة: «أصبحت في الآونة الأخيرة أعاني من نقص مادة الأنسولين. لقد كنت أتناول الحبوب وهي متوافرة نوعاً ما؛ ولكن منذ أن بدأت بتناول جرعة الأنسولين ازدادت صعوبات تأمينها... مجرّد التفكير بطريقةٍ ما لتأمين الأنسولين في ظلّ افتقار الصيدليات إليه يرفع معدل السكري لدي». ولكنها تقول إنها لم تعد تعتمد على الأنسولين بشكلٍ مستمرّ، بل أصبحت تتناوله بشكلٍ متقطعٍ أو عند الضرورة الملحة، بحسب الكمية التي تحصل عليها عن طريق بعض الأقارب في الخارج.

وقال الصيدلاني محمد، من أهالي قلعة المضيق في ريف حماة الشماليّ: «نعتمد على أدويةٍ تصنّع في مناطق النظام، وكثيرٌ من الأصناف بدأت تختفي من السوق دون وجود البديل والأسباب عديدة، لكن أهمها توقف بعض المعامل عن التصنيع. أما مادة الأنسولين فهي مستوردة، ويحاول النظام حالياً الاعتماد على الأنسولين الإيرانيّ أو الروسيّ السيئ الذي استورده إلى مناطق سيطرته بكمياتٍ قليلةٍ بسبب غلاء هذه المادة، ما دفع إلى تضاعف سعرها عدّة مرّاتٍ وانعكس على وجودها في المناطق المحرّرة».

ولجأ بعض المرضى إلى حلولٍ أخرى كالأعشاب علها تكون بديلاً عن الأنسولين وباقي أنواع أدوية السكري. تقول أم عامر، إحدى سيدات ريف حماة الشماليّ: «أقوم في صبيحة كلّ يوم بقطف أوراق الزيتون وغسلها، ثم أضعها في ماءٍ يغلي وأتركها حتى تبرد، لأقوم بتصفية الماء وشربه مرّتين في اليوم. قد لا يكون ورق الزيتون ناجعاً مثل الأنسولين، لكنه يساعد في خفض نسبة السكر لديّ».

ويلقي بعض مرضى السكري اللوم على المنظمات الإنسانية لعدم تأمين الدواء لهم بكمياتٍ تكفيهم وتغنيهم عن عناء البحث عنه. «فمن يستطيع تأمين سلةٍ غذائية.. يستطيع تأمين جرعة الأنسولين»، على حدّ تعبير أم عامر.

ومن المعروف أن عدم استقرار السكر في جسم المريض عند حدٍّ معينٍ قد يؤدي إلى اختلاطاتٍ قلبيةٍ وعينيةٍ وكلويةٍ والقدم السكري وضعف الإنجاب، والكثير من المضاعفات التي تزيد من معاناة المريض. ويبدو أن التركيز على التوعية الصحية هو السبيل الوحيد في ظلّ الحرب للوقاية من مضاعفات مرض السكريّ وغيره من الأمراض التي لها أثرٌ كبيرٌ على المصابين وعائلاتهم وتستنزف قدراتهم وطاقاتهم، وهو الحلّ الأمثل في هكذا ظروف.

شبّيحة في سجن عدرا!

وائل سعد الدين *

حسناً..

وبلا مقدّمات، أنا صاحب هذا الكلام أمضيت ثلاث سنين في سجون الطاغية، أمضيتها تحت الأرض وعلى الأرض وفوق الأرض، من فرع فلسطين إلى الشرطة العسكرية إلى سجن عدرا، لأحاكَم أمام محكمة قضايا الإرهاب بتهمتَي ترويج أعمالٍ إرهابيةٍ وتمويل أعمالٍ إرهابية.

لن أتحدث عن الموت الذي أحاط بي من جميع الجهات في أقبية فرع فلسطين، ولن أتحدث عن أفعال سحق الإنسانية التي مورست عليّ وعلى من حولي، ولن أتحدث عن عدد الذين قرأت الفاتحة على أرواحهم، أو عن أشكال المعطوبين الذين انتظروا أو تمنّوا الخلاص بصعود أرواحهم إلى بارئها ولم أعد أعرف عن مصيرهم شيئاً... فقد وصلت إلى سجن عدرا بكامل قواي العقلية وبعض قواي الجسدية. نعم، إنه سجن دمشق المركزيّ، البناء المهيب الذي لطالما تمنّيت أن أصل إليه، فسجن عدرا يعني العودة إلى الحياة لكثيرين قد لا يواجهوا حكماً بالإعدام!

إنّه المكان المزدحم بجميع أصناف البشر، حيث البسطاء والطيبون والثوّار واللصوص والقوّادون والقتلة وما هبّ ودبّ من أصحاب الجُنَح وأصحاب الجرائم الشائنة، إضافةً إلى الشبيحة! نعم، الشبيحة الذين خبرناهم ورأينا فيديوهاتهم تكتسح اليوتيوب ومواقع التواصل الاجتماعيّ. وهذا ما لا يعرفه الكثيرون؛ إذ إنّ محكمة قضايا الإرهاب، التي أنشأها النظام عام 2012 كبديلٍ عن محكمة أمن الدولة، تحاكم -إلى جانب المدانين بارتكاب أعمالٍ إرهابيةٍ أو تمويلها أو الترويج لها- عددا كبيراً من الشبيحة الذين عملوا لصالح النظام وقاتلوا في صفوف ميليشياته ولا زالوا على ولائهم الأعمى له. تحاكمهم بالتهم نفسها التي توجّهها للمعتقلين، ولكن ليس لأعمالٍ قاموا بها ضدّ النظام وأجهزته المختلفة، وإنّما على خلفية خلافاتٍ حدثت بينهم وبين مشغّليهم أو الضبّاط المسؤولين عنهم. وهذه الخلافات تحدث عادةً -كما عرفت منهم نتيجة نشوء شبكةٍ من العلاقات المعقّدة داخل السجن- من أجل الغنائم سواء أكانت مسروقاتٍ أو أموالاً أو معلومات، أو بسبب قضايا خطفٍ فاشلة، كخطف أحد التجار أو أبنائهم مقابل فدية، فيتبيّن أن هذا المخطوف -ولسوء حظّ الشبّيح- ذا حظوةٍ لدى بعض الضباط المتنفذين فيُلقى القبض على الخاطفين، إضافة إلى بعضٍ المتورّطين فعلاً بقضايا بيع ذخيرةٍ للجيش الحرّ في المناطق المحاصرة مقابل مبالغ خياليّة.

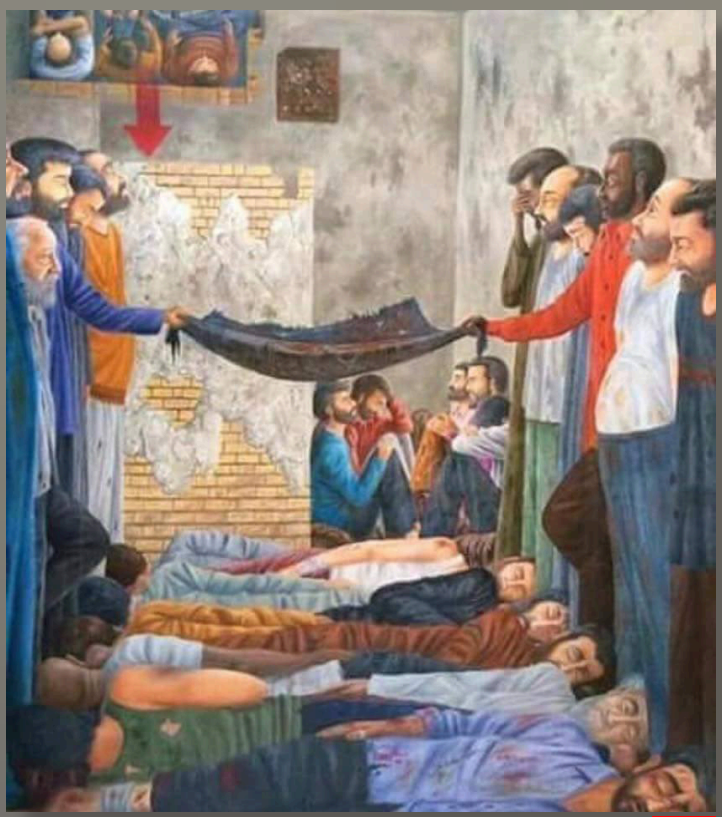

تغيّر السجن كثيراً بتقدّم أعوام الثورة، وذلك بتغيّر طبيعة وسمات الموقوفين فيه. ففي أواخر عام 2013 عندما وصلت إليه كنت أستطيع التحدث -ولو سرّاً- مع عددٍ لا بأس به من الشباب الذين شاركوا حقيقةً أو أسهموا -ولو عن بعد- في العمل الثوريّ الذي كان على قدم وساق، إذ كانت معظم المناطق -قبل اعتقالهم- مفتوحةً على بعضها، وإمكانية الدخول والخروج من وإلى الأحياء أو البلدات الثائرة متاحةٌ إلى حدٍّ ما، وطرق التهريب كثيرةٌ ومتشعّبة. كنا نستطيع على أقلّ تقدير التحدث بأمور البلاد والعباد، ونتشارك أحلامنا وآمالنا وجنوننا واستهتارنا وخوفنا من المجهول بل وخيباتنا الكثيرة أيضاً.

ولكن مع انفصال المناطق عن بعضها، وعدم قدرة الناشطين على الحركة منها وإليها، إضافةً إلى حصار الغوطتين، ثمّ حملات التمشيط الأمنية الكثيفة التي قام بها النظام في مدينة دمشق وضواحيها؛ أصبحت نوعية المعتقلين مختلفة. فمعظم الذين اعتقلوا في عام 2014، وكتب لهم الوصول إلى سجن دمشق المركزيّ بعد أن عانوا ما عانوه، كانوا من سكان المناطق الخاضعة لسيطرة النظام، ولم تكن لغالبيتهم صلةٌ بالعمل الثوريّ -حتى أنّ جزءاً منهم كان مؤيّداً- إلّا أنّ الحواجز، ودون أيّ معايير مفهومة، التهمتهم كما التهمت غيرهم سابقاً من قاطني المناطق المنتفضة على نظام الطاغية.

وباستثناء بعض الحالات القليلة الموجودة قبلاً، بدأت وفود الشبيحة تجتاح سجن دمشق المركزيّ بلا استئذان عام 2014، حتى وصل عددهم عند خروجي من السجن إلى ما يقارب 3000، بتهمٍ تتراوح

بين تمويل أعمالٍ إرهابيةٍ وارتكاب أعمالٍ إرهابيةٍ والسرقة في زمن الاضطرابات وكتم الجناية، والقتل أيضاً!

ومع ازدياد أعدادهم وتكتّلهم ضمن أجنحة السجن زاد الأمر سوءاً على المعتقلين، وخصوصاً منهم من شاركوا بشكلٍ فعليٍّ في العمل الثوريّ. وما زاد الطين بلّةً هو عملية التسفير الكبيرة التي قامت بها إدارة السجون، بإيعازٍ من الأمن القوميّ المسؤول بشكلٍ مباشرٍ عن عمل محكمة قضايا الإرهاب، إذ تمّ نقل 900 معتقلٍ (من ريف دمشق، ومعظمهم من الغوطة الشرقية) إلى سجني حماة والسويداء بعد تهديد جيش الإسلام باقتحام سجن دمشق المركزيّ، في شباط 2015.

في المرحلة التي تلت التسفير أصبحت للشبيحة داخل السجن صولةٌ وجولة. وقد استدعت إدارة السجن قادة مجموعاتهم وأخطرتهم أنّها ستشكل منهم «لجنة حمايةٍ مسلحةٍ للدفاع عن السجن وضبط الأمن فيه» في حال تدهورت الأوضاع في محيطه. كيف لا وهم محطّ ثقةٍ مطلقةٍ من قبل الضباط في الإدارة وقسم الحراسات ومفرزة التحقيق ومفرزة الأمن السياسيّ التي تصلها تقاريرٌ يوميةٌ من معظمهم عن تحرّكات المعتقلين ونشاطاتهم وصِلاتهم في ما بينهم وصَلاتهم إلى ربهم! هذه التقارير هي سلاح الخوف الذي يرهب المعتقلين فعلاً، فتقريرٌ واحدٌ -ولو كان كيدياً- حول تكتلٍ سياسيٍّ أو دينيٍّ أو مناطقيٍّ محتمل، أو عن مجرّد التفكير باستعصاءٍ، أو شتم الطاغية أو أخيه أو حسن نصر الله، أو الدولة أو القضاء أو الإعلام الرسميّ؛ كفيلٌ بنقل السجين/المعتقل إلى فرع الأمن السياسيّ، حيث رحلةٌ أمنيةٌ جديدةٌ ودعوى أخرى أمام محكمة قضايا الإرهاب، إن قدّرت له النجاة من الموت والعودة إلى رحاب غرفته وسريره!

يطرح تراكم أضابير الشبيحة في محكمة قضايا الإرهاب تساؤلاتٍ عدّة؛ فما الذي تريده السلطة الأمنية من زيادة أعدادهم في هذه المحكمة؟ إذا أخذنا في الاعتبار ازدياد تحويلات المعتقلين الذين لهم أدنى علاقةٍ بالعمل الثوريّ من الأفرع الأمنية إلى محكمتَي الميدان العسكرية الأولى والثانية، وترحيلهم في ما بعد إلى قدرهم المحتوم بالموت في سجن صيدنايا العسكريّ. وما الذي تريده المعارضة من النقاش الذي طرح حول طلب حلّ محكمة الإرهاب دون الحديث عن محكمة الميدان العسكرية؟...

للعلم وللعلم فقط: إنّ بادرة حسن النية التي تشدّق بها وزير الخارجية الروسيّ سيرجي لافروف في رسالةٍ بعثها إلى المشاركين في (اللقاء التشاوري للحوار السوريّ-السوريّ)، وتولّى ممثله عظمة الله كولمحمدوف إلقاءها، وكنت قد تابعت ذلك بشغفٍ وترقّبٍ على قناة «سما» الفضائية وأنا أضطجع على سريري الأثير في الجناح السابع/غرفة رقم 10، حول إطلاق النظام سراح عددٍ من المعتقلين عام 2015؛ كانت الإفراج عن عددٍ من السجناء كانوا **جميعاً** من الشبيحة، ومنهم من يحمل بطاقات جمعية البستان الخيرية التابعة لرامي مخلوف، والموسومة بأختامٍ من إدارة المخابرات الجوية!

لقد قال لافروف وقتها: «نشير بارتياح إلى خطوةٍ مهمةٍ أقدمت عليها الحكومة السورية قبيل لقاء موسكو الحالي حول إطلاق سراح 683 معتقلٍ في السجون السورية في إطار العفو العام في الـ25-24 مارس/ آذار عام 2015. ويُدّعى بأنه في الحقيقة تمّ إطلاق سراح عددٍ أقلّ من المعتقلين مما تمّ الإعلان عنه، ولكننا في كلّ حال نعتبر هذه الخطوة إشارةً واضحةً لاستعداد الحكومة السورية لتلبية طلبات هيئات المجتمع المدنيّ والأوساط المعارضة، والسؤال: كيف سترد عليه المعارضة؟».

إنّه سؤالٌ مهمٌّ فعلاً يا سيّد لافروف، كيف سترد المعارضة على كلّ هذا الهراء؟ مرّ عامٌ ونيّفٌ على هذه الحادثة ولم ترد المعارضة، وخرجتُ من السجن ولم ترد المعارضة، وغادرتُ البلاد بصعوبةٍ بالغةٍ ولم ترد المعارضة. وما زال عشرات الآلاف من القابعين في السجون المدنية والأفرع الأمنية يتوهّمون أنّ قضية المعتقلين هي القضيّة رقم واحد!

30/ 7/ 2016

❖ مواليد 1984. شاعرٌ ومخرج أفلام وثائقية. اعتقل في 2013/4/23 على خلفية نشاطه الإعلاميّ المساند للثورة، إذ صوّر وأعدّ عدداً من التقارير لصالح قنوات الجزيرة والجزيرة الإنكليزية وأورينت، إضافة إلى فيلمين وثائقيين طويلين عرضا على قناة العربية: (خطوط القلب الجنوبية/ إعداد وتصوير وإخراج)؛ (اللجاة - أيام مع الجيش السوري الحرّ/ إعداد). له ديوانٌ مطبوعٌ بعنوان (المخامر الأخير)، صدر عام 2010 عن دار كنعان بدمشق. أطلق سراحه بكفالةٍ ماليةٍ على أن يحاكم خارج السجن، بعد اعتقالٍ دام 3 سنوات، فغادر سورية سرّاً إلى تركيا.

وقفاتٌ من الأمل في منظمة بسمة

محمد شباط

من أحد احتفالات بسمة - خاص عين المدينة

حين بلغ التاسعة من عمره، وبعد أن كان حالماً بدراسته ومحبّاً لزملائه الذين أصبحوا أصدقاءه في تلك المدرسة؛ ما لبث أسامة أن وجد نفسه بائعاً للمحروقات على قارعة إحدى الطرق في المدينة.

هذا الطفل، صاحب الابتسامة الرائعة التي لا تفارق محياه، بات يفتقد تلك الابتسامة اليوم نتيجة الحرب الدائرة وما خلفته من آثارٍ سلبيةٍ على وضعه ووضع عائلته، ويفتقد بشكلٍ كبيرٍ حقه الطفوليّ في العيش والحرّية والتعليم، بعد أن أجبرته حالة فقر أهله الشديدة على ترك المدرسة والجلوس على حوافّ أحد أرصفة مدينته ليعيل عائلته ويساعدهم على قسوة هذه الحياة.

في مدينة طفس بمحافظة درعا، وهي المدينة الرائدة والسباقة في التعليم، والمدينة الثائرة في وجه قوّات الأسد؛ أخذ ثلةٌ من المثقفين على عاتقهم مسؤولية عودة الحياة والروح إلى المجال التعليميّ في مدينتهم، فبادروا إلى تأسيس فريقٍ مختصٍّ في مجال الدعم والعلاج النفسيّ وفي المجال التعليميّ والترفيهيّ، هدفه بثّ الروح والحياة من جديدٍ في أطفال مدينتهم.

بعد ن أنهى دجانة البردان الدراسات العليا في علم الاجتماع، وبعد ما شاهده من أحداثٍ وآلامٍ وحالاتٍ نفسيةٍ سلبيةٍ يعيشها أطفال مدينته؛ عمل -بالتعاون مع بعض خريجي كلية التربية من أبناء المدينة- على تأسيس فريقٍ متجوّلٍ يهدف إلى زيارة المدارس والمراكز التعليمية في طفس وتطبيق العديد من البرامج التعليمية والترفيهية النفسية في تلك المدارس.

وكان لـ«عين المدينة» لقاءٌ مع السيد دجانة البردان الذي أكد على صعوبة العمل في البداية، كما أكد على الإصرار والعزيمة الكبيرين لعناصر الفريق لتقديم كلّ ما يمكنهم لإخراج الأطفال من واقع الأحداث المؤلمة. وبيّن البردان أنه «في بداية الـ2013 تطوّر عمل الفريق وأصبحت الحاجة أكبر لتأسيس مركزٍ قائمٍ على الأرض، فعملنا على تأسيس «مركز بسمة للدعم النفسيّ والارتقاء البشريّ»، هذا الاسم الذي استوحيناه من إصرارنا وعزيمتنا على إعادة البسمة والسرور إلى شفاه وقلوب أطفالنا». وبعد تكاتف الجهود، ونظراً للحاجة الماسّة إلى الدعم والعلاج النفسيّين؛ انطلق مركز بسمة بالعمل على إنشاء عدّة مراكز دعمٍ نفسيٍّ في كلٍّ من محافظتي درعا والقنيطرة.

كما التقينا خالد المستريحي، المدير العام لمنظمة بسمة، الذي حدثنا عن آلية عمل المنظمة وفق مجموعاتٍ تتولى كلٌّ منها 15 طفلاً لثماني جلساتٍ خلال شهرين. وأشار إلى التوسّع الكبير التي قامت به المنظمة بافتتاح مراكز في مدينة نبع الصخر وبلدة الرفيد وقرية العشة وعدّة مدنٍ وبلداتٍ أخرى، بالإضافة إلى مركز طفس، انطوت تحت اسم منظمة بسمة. ويتم من خلالها تطبيق العديد من البرامج التعليمية، والعمل على إقامة نشاطاتٍ وفعالياتٍ مهرجانيةٍ تدخل الفرح إلى قلوب الأطفال والأهالي.

وعن أهم البرامج والنشاطات يوضح السيد محمود البردان، صاحب الباع الطويل في مجال العلاج والدعم النفسيّين، أحد المعلمين في منظمة بسمة، أنه يتمّ تطبيق برامج عديدةٍ ومتنوعةٍ منها برنامج (سكريم) الذي يحدّ بشكلٍ كبيرٍ من ظاهرة عمالة الأطفال الذين تركوا دراستهم لمساعدة ذويهم كما رأينا في حالة الطفل أسامة. ويضيف: «بالإضافة إلى ذلك عملنا على تطبيق برنامج «المساحات الصديقة للطفل»، الذي يهدف إلى إخراج الأطفال من واقعهم المرير إلى الحالة الطفوليّة السليمة المليئة بالفرح والسعادة. وكان لهذا البرنامج وقعٌ خاصٌّ على أطفال المنظمة». والجدير بالذكر أن برنامج «المساحات الصديقة للطفل» يتوجّه إلى الأطفال في أعمار 5-10 سنوات، بينما يعنى مشروع «أساليب البقاء» بالأطفال الأكبر سناً، وتوجد برامج لذوي الاحتياجات الخاصة، وأخرى لأبناء الشهداء والمعتقلين.

ولأن عدسة أيّ مصوّرٍ تسارع إلى السعي خلف اللقطات الرائعة، فقد عبّر لنا مدير المكتب الإعلاميّ، السيد أسامة دحلوش عن حالة الإعجاب التي انتابته تجاه صورة تلك الطفلة التي تقف مع زميلاتها أثناء أحد احتفالات المنظّمة مؤخراً، والتي حكت بحزن عينيها قصصاً تعجز عنها الكلمات. كما أكد الدحلوش -من خلال عمله كمصوّرٍ مع المنظمة- عن حبّه الشديد لهذا العمل، وتعلقه بهذا الجوّ الأسريّ الجميل وبالأطفال الذي عاش معهم آلامهم وأحزانهم وأفراحهم.

إن ما تقدمه منظمة بسمة، سواء على الصعيد التعليميّ أو التربويّ أو النفسيّ، هو عملٌ رائعٌ يخدم الأطفال بشكلٍ كبيرٍ في ظلّ الحرب الموجعة التي تعصف بالبلاد.

الركبان... دولة الانتظار، والتقهقر كذلك

تقرير خاص

يعيش غالبية السوريين في الانتظار، ومنهم سكان منطقة الركبان بين الحدود السورية والأردنية. لكن هؤلاء توقفوا عن الانتظار وذهبوا في رحلةٍ إلى الخلف في مخيّمٍ بعيدٍ عن الإعلام حتى الآن، رغم أنه مهدّدٌ بالتحوّل إلى ما يشبه صحراء سيناء التي تعيش خارج الدول.

إطلالةٌ على المخيّم

منذ الهجوم الذي وقع على حرس الحدود الأردنيّ في 21 حزيران 2016 والمنطقة الشمالية الشرقية من الحدود الأردنية، حيث يقع المخيم، منطقةٌ عسكريةٌ بأمرٍ من قيادة الأركان. وقد سمح لبعض المنظمات الدولية، كاليونيسيف والصليب الأحمر وبرنامج الأغذية العالمي، بالعودة إلى العمل بعد إيقافه مدّة. لكن الجيش الأردنيّ ما زال يمنع استقبال اللاجئين في المنطقة، ويتعاون لضبط أمور المخيم والمنطقة المحيطة مع «جيش أسود الشرقية» و«قوات الشهيد أحمد العبدو» و«جيش العشائر» وغيرها من الفصائل السورية المقرّبة من الأردن.

على أن الركبان، الذي يبعد 20 كم عن الحدود العراقية الأردنية السورية، لم يكن مقرّراً له أن يكون مخيماً، بل مركز استقبالٍ بدأت أعداد القادمين إليه تزداد منذ سنةٍ ونصفٍ تقريباً، بالتزامن مع تقليص الحكومية الأردنية أعداد الداخلين إلى أراضيها واشتراطها لذلك وجود كفيلٍ أردنيّ. إلى أن حدّدت، منذ أشهر، العدد المسموح به من اللاجئين بما لا يزيد عن مئةٍ بكثيرٍ يومياً، ليصل عدد المنتظرين في المخيّم إلى 70 ألفاً بحسب منظماتٍ، ويتجاوز 80 ألفاً بحسب ناشطين.

تنظيم الدولة والمخيّم

منذ أشهرٍ بدأت الحكومة الأردنية بالتحفظ في وجه المنتظرين على الحدود للدخول إلى أراضيها بدعوى وجود عناصر تابعين للتنظيم بينهم، قادمين من الأراضي التي يسيطر عليها كالرقة ودير الزور. وبحسب الناشط سعيد سيف، القريب من الركبان، فإن عناصر من التنظيم «تتخذ المخيم كاستراحة، إذ تدخل إليه بسيارات البيك آب الخاصّة بالمضادات بعد نزع السلاح عنها». وتسهم عدّة أمورٍ في «دعشنة المخيم بنظر العالم»، كسيطرة المكوّن العشائريّ عليه متمثلاً بعشيرة العمّور المتهمة من الكثيرين بموالاة التنظيم، وقد اتجهت إلى المخيّم من تدمر بعد سيطرة النظام على هذه المدينة في آذار 2016. كما أن تجمّعاً بهذا الحجم، وفي هذه الظروف، قد يستعمله تجار الحروب لتسهيل أعمالٍ غير قانونية، كتجارة المخدرات والسلاح والآثار، وهو ما يؤكد وجوده في المخيم أكثر من شخصٍ غادره منذ مدّةٍ قريبة. كما أن وقوع التجمع خارج الحدود بين الأردن وسوريا يسمح لشعور التهميش والضياع والمظلومية بالتسلل إلى وجدان الكثيرين وتفكيرهم، ومن هذه المشاعر يحاول التنظيم أن ينشط. على أن المخيم ظلّ لمدّةٍ طويلةٍ قبلةً للهاربين من العيش في ظلّ التنظيم في دير الزور والرقة وغيرهما.

النكوص إلى حالة البداوة

قبل أن يصل التجمّع إلى هذا الحجم كانت تديره لجنةٌ مدنيةٌ قضائيةٌ تشكلت توافقياً تعمل مع كتائب الجيش الحرّ لتسيير الحياة هناك، كتنظيم توزيع المساعدات وفضّ النزاعات. لكن تدفق جماعاتٍ عشائريةٍ من تدمر خاصّةً، ومن السخنة والصوانة والمداد في حمص وحماة والرقة ودير الزور وحلب، جعلت التوافق مستحيلاً، مع امتلاك بعض هذه الجماعات أسلحةً نارية، ودخولها في صراعاتٍ ضمنيةٍ ومعلنة، انتهى أحدها منذ شهرين تقريباً على نحوٍ مؤسف. ففي محاولةٍ من فئةٍ تنتمي إلى بني خالد لفرض النفوذ حدثت بلبلةٌ هجموا فيها على حرس الحدود الأردنيّ، واشتبكوا بالسلاح الخفيف والمتوسط مع «أسود الشرقية»، لتسقط قتيلةٌ وثلاثة جرحى ويتمّ ترحيلهم من التجمّع.

يقدّر سيف بأن 20% فقط من خيم التجمع من تقديم المنظمات والهيئات الإنسانية، أما الباقي فهي بيوت شعرٍ أو خيم صيدٍ أو خيمٌ بناها الأهالي مما توافر من المواد. ويعمل الكثير من القاطنين في تربية الأغنام أو رعيها، إذ يستفيدون من أنهم في المنطقة المحرّمة، وهي «أرض خير» بحسب ما هو معروف في المنطقة التي صار فيها سوق غنم (ماكف) يستقبل يومياً 1500 رأسٍ يباع منها 500 للسويداء وريف دمشق وغيرها، ويقصدها التجار لبيع أغنامهم من دير الزور والرقة. إذ يتساهل التنظيم مع المتوجهين إلى الركبان، رغم أنه يرسل كمائن ودورياتٍ تنتظر سياراتهم عند السبابات (آبار سقاية الغنم في البادية). كما يعمل أهالي المخيم بالصيد والتقاط الكمأ والتجارة به.

يعتمد التجمع لتأمين المياه على صهاريج جماعاتٍ عشائريةٍ في المنطقة، كعشيرة الغياث، تلجأ إلى المصانع (أماكن معدّة لتجميع مياه السيول) لتأمين المياه وتصفيتها للشرب باستعمال (الشبّة)، بمساعدة الفصائل ودعم اليونيسيف. ويوفر قاطنو المخيم احتياجاتهم من تجارٍ قادمين من السويداء. ويعتمدون، في أحيانٍ كثيرة، على صناعة الخبز بأنفسهم. ويضيف سيف أن المخيم يحوي بقالياتٍ بسيطةٍ وصالونات حلاقةٍ و30 صالة نت.

هل الرقة عاصمة الخلافة؟

أحمد مهيدي

يروج في أوساطٍ إعلاميةٍ واسعةٍ أن الرقة عاصمة خلافة تنظيم داعش، ويدعم هذا التوجّه حتى إعلاميوها المعارضون له الذين يمنحونها ثقلاً وفاعليةً على مستوى التنظيم. حتى لم يعد طرح السؤال حول صحة هذه المعلومة أمراً مطروقاً، رغم أن الرقة كانت مثالاً ضربه العدناني (الناطق الرسميّ باسم «الدولة الإسلامية») عن الأراضي التي من المحتمل ان تنسحب منها داعش في حربها الطويلة، كما تراها. فهل هي حقاً عاصمة الخلافة؟

اتسمت مدينة الرقة بالهدوء النسبيّ طوال المرحلة السلمية للثورة السورية، فلم تكن لها مشاركةٌ فاعلةٌ فيها كما حصل في مدنٍ أخرى. وعندما انتقلت الثورة إلى المرحلة المسلحة في 2012 كانت الرقة لا تزال تحت سيطرة النظام، ما جعلها مكاناً وفد إليه النازحون من محافظاتٍ عدّة، أبرزها دير الزور وحلب، هرباً من شبح الموت. حينها كان النظام مطمئناً للرقة وأهلها «المسالمين» فلم يركّز ثقلاً عسكرياً فيها، ما جعل خروجها عن سيطرته مطلع آذار 2013 (على يد أحرار الشام وجبهة النصرة بشكلٍ رئيسيّ) أمراً سهلاً، إذ استغرقت المعارك ساعاتٍ قليلةً في وقتٍ لم يستطع فيه آلاف المقاتلين السيطرة إلا على بضعة أحياء في مراكز مدنٍ أخرى.

سيطرت حركة أحرار الشام على المدينة، وحاولت القيام بوظائف الدولة، فأدارت شؤون النظافة وبعض الأفران والمحكمة، أما دائرة الأحوال المدنية والمدارس والجامعة والكهرباء والمياه فقد استمرّت في تسيير أعمالها على يد الموظفين الحكوميين أنفسهم. ولولا مظاهر الدمار البسيطة جرّاء القصف الذي كانت تتعرّض له من حينٍ لآخر لانتاب زائر الرقة شعور أن المدينة لا تعيش حرباً، وظلت مكاناً يزخر بالنازحين.

وجدت جماعة البغدادي في أجواء المدينة الهادئة، وفي أهلها الذين لم تستقطبهم الثورة وفصائلها بشكلٍ كبير، مناخاً ملائماً لترتيب أمورها. فكانت الرقة من أوائل الأماكن السورية التي وطأتها، فخبرت أهلها وناشطيها، وظلت ترتب أمورها بصمتٍ لم تقطعه سوى اغتيالات بعض الناشطين وخطف آخرين، حتى مطلع 2014 حين قامت داعش بتصفية الأحرار والنصرة في الرقة، إثر طردها من قبل الثوّار في حلب وإدلب. وكما تحرير الرقة من نظام الأسد كانت سيطرة التنظيم عليها سهلة، فلم تستغرق الاشتباكات سوى ستة أيام تسلم التنظيم بعدها المدينة دون أن يكون قد لحق ببنيتها التحتيّة وكوادر الإدارة فيها أذىً يذكر. فظلت المياه والكهرباء والمشافي والهاتف متوافرة، عكس بقية المناطق المحرّرة التي سيطر عليها التنظيم لاحقاً، وهذا ما ساعده على التفرّغ لابتذال أعمالٍ تلقاها الكثير من المفتونين بدهشة، كـ«مكتب الحدائق»!

بُعيد إعلانه الخلافة، في منتصف 2014، أنهى التنظيم حربه ضد الفصائل العسكرية في دير الزور بسيطرته على المحافظة، بعد معارك استمرّت لأكثر من ستة أشهر لم يطمئن بعدها لأهالي المنطقة الذين ظلوا في نظره مشاريع «صحوات»، بخلاف الوضع في الرقة التي صارت مثالاً يُظهر التنظيم بالصورة التي يريد ترويجها عن نفسه لأنصاره وخصومه على السواء، كدولةٍ قادرةٍ على تسيير شؤون الحياة وضبط الأمن وإقامة الشريعة، الأمر الذي يظهر جلياً في إصداراته عن الحياة العامة، من أسواقٍ وشرطة مرورٍ ومشاغل في المدينة التي استعملها الجهادي جون كأستوديو لتصوير إعدامات الرهائن.

لأن الرقة صارت قبلة عناصر التنظيم، ولا سيما المهاجرين الذين «تركوا دنياهم وجاؤوا يبذلون أرواحهم في سبيل الإسلام ودولته»، منتجعاً لهم يقضون استراحاتهم في مطاعمها وأسواقها ويتزوجون فيها ويسلبون بيوتها ليسكنوها مع عوائلهم؛ وبسبب نشاط حملة «الرقة تذبح بصمت» الذي أعطى المدينة زخماً في وسائل الإعلام المحلية والعالمية؛ إضافةً إلى الهالة التي صنعها ناشطون لأبي لقمان (والي الرقة السابق في التنظيم) حين جعلوه والي الشام (سوريا) علماً أنه لا توجد «ولاية» بهذا الاسم؛ ولأحاديث أهالي المناطق الأخرى عن ممارسات التنظيم الوحشية في حقهم مقابل عدم تضييقه على أهالي الرقة بنفس الدرجة؛ وأخيراً لاتخاذها مكاناً لإعدام الرهائن الذين خطفهم في مناطق أخرى من سورية... لهذه الأسباب مجتمعةً اعتقد الكثيرون أن الرقة عاصمة الخلافة، رغم أن التنظيم العراقيّ لم يصدر عنه اتخاذه عاصمة، بل إنه لم يحشد مقاتليه للدفاع عن المدينة حين هددت «قوات سوريا الديمقراطية» بالهجوم عليها، كما فعل بجبهات العراق المختلفة.

إعلام تنظيم الدولة
بين ترشيد المنتَج وإجرام الهدف

علي خطاب

بدا الإعلاميون الخمسة الذين ظهروا في إصدار «وحي الشيطان» دون كدماتٍ واضحة، رغم أن جميع من كانوا معهم في المعتقل أكدوا أن الضرب الذي نالوه من الأمنيين وصل إلى كسر أعضاء بعضهم. وظهر أربعةٌ منهم بلحىً خفيفة، بينما ظهر الخامس -الذي عرّفه الإصدار بلسانه على أنه مبايعٌ- بلحيةٍ طويلة، رغم أن جميع من يسكن تحت سلطة التنظيم مرغمٌ على إطالة اللحية وإلا تعرّض للعقوبة.

تصلح هاتان الملاحظتان للتأكيد على أن الإعدام جرى على مراحل طويلة، امتدّت لثلاثة أشهر بحسب تقديرات البعض، انتظر فيها المسؤولون عنه الكدمات حتى تلاشت، وحلقوا لحى ضحاياهم أكثر من مرّة. وكذلك فكّر آخرون في هذه المدّة بالطريقة التي سيتمّ بها إعدام الخمسة، وتصوّر إعلاميو التنظيم فكرة الإصدار والمشاهد التي سيعرضونها فيه، والطريقة التي سيتمّ بها عرض اعترافات الضحايا وقصصهم، ثم راح المصوّرون (ليسوا على اتصالٍ بالمخرجين والمنتجين، بحسب بعض من عمل معهم) يلتقطون المشاهد لصنع المادة الفيلمية، لتذهب إلى المونتاج في ما بعد، الذي بالضرورة رفض بعضها وقبل الآخر، وأعمل فيها قصاً ولصقاً، وأدمج معها الآيات القرآنية وصوت قارئ التقرير الذي أعدّه بتروٍّ وبالاستعانة بالمُراجع، او أُعدّ له، ليأتي دور المروّجين في النهاية.

توضح هذه الطريقة التي يمرّ بها الإصدار، والتي يمرّ بها أيّ فيلم عاديٍّ، الطريقة المرشّدة التي يخضع لها إعلاميو التنظيم في عملهم. هذا «الترشيد الذي لا يتعامل مع الواقع بشكل ارتجالي وجزئي وانما يتعامل معه بشكل منهجي متكامل ومتسق مع مجموعة من التصورات المرجعية» هو، بحسب عبد الوهاب المسيري، «إحدى الآليات التي تمت بها علمنة الإنسان الفرد والمجتمع» في الغرب، وقد وصل إليها بالمراكمة وبمساهمات مفكريه. لكن من غير المعروف كيف وصل إلى تنظيم الدولة؛ أمِن ملاحظة إعلاميّيه وخبرة بعضهم، أم أنه فرض عليهم من الأعلى بتوجيه ونصيحة «مخرجين أجانب» يعملون معه، كما ذكرت صحفٌ غربيةٌ في وقتٍ سابق؟

وباستثناء الإصدارات الأخيرة التي يتفاعل فيها مصوّرو الحرب في العراق مع الواقع الذي يصوّرونه، لتبدو أصواتهم وتعليقاتهم في الإصدار، يقتصر عمل المصوّر في غالبية الإصدارات السابقة على تصوير أحداث المعركة، ليُقبَل جزءٌ صغيرٌ من عمله قد لا يتجاوز الثواني المعدودة، يضمّها المنتجون إلى مقاطع أخرى كثيرة، بعد أن يعطيها المخرج الشكل النهائيّ الذي سترى فيه النور. موظّفاً في هذا الشكل جميع ما يراه مناسباً مما وصل إليه من مشاهد، معتمداً على معرفته بالأمور التي تجذب الجمهور الشابّ، مضخّماً بعض المواضع ومغيّباً أخرى لتصبّ في الفكرة التي تبناها التنظيم لبناء شرعيته وإقناع أتباعه وخوض حربه. وتنفصل تلك الفكرة تماماً عن عمل «ماكينته الإعلامية» التي تتوزّع فيها الأدوار وتطبّق فيها الإجراءات بحرفية، ويقنع فيها الإعلاميّ بعمله الجزئيّ لخدمة هدفٍ نهائيٍّ مقبولٍ بالنسبة إليه.

يتعامل إعلاميو الثورة مع عملهم بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً في الغالب، إذ تظهر في المقاطع التي يصوّرونها، ويرفعونها بأنفسهم كما هي على شبكة الإنترنت، مشاعرهم وأحاسيسهم وربما آراؤهم في تعاطفهم مع الضحايا وفرحتهم بانتصار الجيش الحرّ وشتمهم النظام وخوفهم من الموت. الأمور التي لا يجدها المتابع في إصدارات التنظيم، حيث تظهر على الغالب مشاعر معمّمةٌ يسلط الإصدار عليها الضوء من خلال ابتسامة مقاتلٍ أو صوتٍ يردّد «الحمد لله» عند عرض الغنائم، أو مقاطع من أناشيد التنظيم والمؤثرات الصوتية للدلالة على الحماس والإقدام. فلا يستطيع الملاحظ إلا أن يعترف بأن إعلام التنظيم يعتمد على «توظيف الوسائل بأكثر الطرق كفاءةً لخدمة الأهداف».

وبالمقابل قد يشارك بعض إعلاميّي التنظيم في تنفيذ عمليات الإعدام أو التعذيب، كما فعل أبو أنس المصري، أمير المكتب الإعلاميّ في «ولاية الخير» في حقّ الإعلاميين الخمسة لإصدار «وحي الشيطان» أثناء تعذيبهم، وكما فعل سابقاً في أحد الإصدارات بإعدام أحد أسرى جيش النظام باستعمال بومبكشن. لكن الإعلاميين بالعموم لا يشاركون سوى في تصوير الإعدامات، وهو ما شاهده الكثير من الأهالي في الساحات العامة.

يصرّح تنظيم الدولة في أدبياته بأن استيراد منتجات الغرب مسموحٌ في مجال الأسلحة والتقنيات والتكنولوجيا، لكنه ممنوعٌ في مجال الأفكار والأساليب والمعتقدات، على أن واقع التنظيم يشي بأبعد من ذلك بكثير.

جبهة النصرة قبل الارتباط وبعده

سعد عبد الباري

منذ ولادتها أواخر العام 2011، ثم بما مرّت به من منعطفاتٍ وتحوّلاتٍ مختلفة، وحتى إعلان فكّ ارتباطها بالقاعدة قبل أيام، كانت جبهة النصرة الفرع الأقلّ «قاعديةً» بين الفروع الأخرى. وجاء فك الارتباط ليقطع حبالاً لم تكن متصلةً كما ينبغي بالتنظيم الأم.

قبل شهرٍ تقريباً، حُسمت النقاشات في أوساط الحلقة العليا داخل جبهة النصرة، لصالح التيار الأكثريّ فيها الداعي إلى فكّ ارتباطها بتنظيم القاعدة. ونجح الشرعيون والدعاة بعد ذلك في تهيئة الرأي العام الداخليّ لقبول هذا الانفكاك، بل والقناعة الكاملة بصوابه.

في تحوّلٍ كبيرٍ مثل الانفصال، كان من المفترض أن لا تمرّ هذه العملية بسلام في صفوف النصرة كما حدث حتى الآن. فمن بين أعضاء مجلس الشورى كثيري العدد (50 إلى 60 شخصاً حسب بعض التقديرات) لم يتخذ أيٌّ منهم موقفاً عملياً رافضاً لهذا الانفصال، حسب ما تسرّب على نطاقٍ ضيق، سوى شخصٍ واحدٍ هو أبو أنس الشامي (حمود) أمير حلب السابق، الذي اتهم دعاة الانفكاك بالجبن والتولي والخشية من أميركا، قبل أن ينشقّ عن النصرة وينجح في الوصول إلى الرقة ملتحقاً بتنظيم داعش، برفقة نائبه أبو طلحة الأردنيّ، خلال الأسبوعين الأخيرين، ليتبعهما بُعيد ذلك رئيس الأمنيين السابق في حلب. لم تكن دوافع المنشقين الثلاثة ذات صلةٍ متينةٍ بالولاء للقاعدة، إذ لا يحمل أيٌّ منهم تاريخاً جهادياً ذا أهمية، بل كان الدافع ميلهم نحو داعش فوجدوا في الانفصال ذريعة. وتكشف حادثة الانشقاق هذه جانباً آخر من البيت الداخليّ لجبهة النصرة، هو تراجع التيار المتعاطف مع داعش في صفوفها، بسبب الهزائم المتلاحقة التي مني بها التنظيم. ولا يبدو أن حوادث انشقاقٍ ذات أهميةٍ يمكن أن تقع في صفوف النصرة/فتح الشام ممن تبقى من المتعاطفين فيها مع داعش. كما لا يبدو أيضاً أن انشقاقاتٍ أخرى ستحدث حالياً في صفوف المهاجرين، لأسبابٍ عمليةٍ وأخرى مبدئية، إذ لا يوجد من الإغراءات الحركية ما يجذبهم لدى الفصائل الأخرى، ولا يوجد مبرّرٌ شرعيٌّ يدفع إلى هذا الانشقاق، مع مباركة مرجعياتٍ جهاديةٍ هامةٍ لفك الارتباط، وكذلك حال الأعضاء السوريين بشرائحهم المختلفة. بل يرجّح أن تبتلع جبهة فتح الشام كتائب ومجموعاتٍ صغيرة، ولا سيما في حال حققت إنجازاتٍ عسكريةً لافتة.

جماعة خراسان

مع الضربات الأولى للتحالف الدوليّ في سورية هاجمت طائراتٌ أميركيةٌ موقعاً تابعاً لجبهة النصرة بريف إدلب. وتحدثت التقارير عقب ذلك عن استهداف هذه الطائرات قيادياً هاماً في ما أسمته «حركة خراسان»، التي عدّتها تلك التقارير أشدّ خطورةً وتهديداً لأمن الدول الغربية من داعش! كان المستهدف من تلك الغارات محسن الفضلي، رسول أيمن الظواهري إلى سورية بغاية الاطلاع على «ساحة الجهاد الشامي» وكتابة التقارير إليه بُعيد المفاصلة بين النصرة وداعش، قبل أن يتخذ الظواهري موقفه -الذي تأخر لأشهر- من تلك المفاصلة (حسب تقريرٍ نشرته «عين المدينة» في العدد 43*).

وأكدّ التقرير حينها أن جماعة خراسان ليست «حركة»، بل هي مصطلحٌ أو وصفٌ يطلق على مجموع من مرّوا بأفغانستان كأعضاء في تنظيم القاعدة، ووصلوا إلى صفوف جبهة النصرة في سورية، ليشبهوا فيها «وحدةً معنويةً وفكريةً خاصّة، تعنى بدمج المجاهدين المحليين في روحية القاعدة الأم، وبتقديم الدعم المعنويّ الكامل لزعيم النصرة الشابّ الملقب بـ«الجولانيّ»، بعد حادثة الانقسام الخطيرة التي أربكت صورته بين أتباعه». وسوى هؤلاء الخراسانيين، الذين لم يتجاوز عددهم (40) وفق التقرير المذكور، لم يكن بين مقاتلي جبهة النصرة أعضاء قاعدة نموذجيون.

ووفق ما تبيّن لاحقاً، لم يشكل هؤلاء الخراسانيون خطراً على أمن أيّ دولةٍ أخرى، فضلاً عن تآكلهم العدديّ قتلاً، قصداً وبغير قصد، خلال هجمات الطائرات متعددة الهويات. ويبدو أنهم لم يحققوا من المهمات الموكلة إليهم سوى كتابة الرسائل للظواهري؛ إذ لم يقدروا على صبغ الفرع السوريّ، المستحدث على عجل، بصبغة المركز، ولم ينجحوا في تخفيف بعض الغلواء الفصائلية التي ظهرت من جانب النصرة في مواقف عدّة.

لن يشكل من تبقى من خراسانيين أيّ خطرٍ على العالم، ولن يشكل فرع القاعدة السوريّ السابق خطراً أيضاً، لأنه لم يكن قاعدةً بما يكفي ليتمثل أهداف الجهاد العالميّ طويلة الأجل... لحسن حظ السوريين.

* http//:www.3ayn-almadina.com/?p=4626

لغز فتح الله غولن

بكر صدقي

كان ذلك في منتصف آذار 2013، بعد شهرين من خروجي من سوريا. إحدى الجمعيات الخيرية الإسلامية المقرّبة من حكومة العدالة والتنمية، أقامت أنشطةً تضامنيةً مع الثورة السورية في ساحة الديموقراطية في قلب غازي عنتاب. تعرّفتُ، في الخيمة المقامة لهذه الغاية، إلى نائب رئيس تلك الجمعية، وتبادلنا أطراف الحديث. درس الرجل في جامعة الأزهر ويتقن العربية. ودودٌ ودمثٌ جداً، تغطي وجهه لحيةٌ مشذّبةٌ بعناية. فكرتان برزتا في حديثه: الأولى عن «الحدود المصطنعة» التي رسمها الاستعمار بين تركيا والبلدان العربية والإسلامية، وكيف تعايشت جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية على مدى قرون. فمبدأ وحدتنا -هم ونحن- هو الإسلام أو الأمة الإسلامية كما قال. الاستعمار الخبيث اختلق فكرة القومية وجعلنا نقاتل بعضنا بعضاً.

ليصل الرجل، في النتيجة، إلى أن الثورات العربية هي فرصةٌ لاستعادة وحدة الأمة الإسلامية، وإن لم يقل في دولةٍ واحدة.

فهمت أنه يعكس، إلى هذا الحدّ أو ذاك، الأساس الفكريّ للموقف التركيّ من الثورات العربية، في دوائر الحزب الحاكم ذي الخلفية الإسلامية. وهو، بتبسيطٍ شديد، كالآتي: ثورات الربيع العربيّ ستأتي بالإسلاميين إلى الحكم في بلدانٍ حكمتها، طوال عقود، أنظمةٌ علمانيةٌ قومية، تماماً كحال تركيا قبل صعود حزب العدالة والتنمية. وهو ما سيؤدي إلى استعادة تركيا «الإسلامية» دورها الإمبراطوريّ في محيطها الإقليميّ. تتداخل في هذا الطموح النزعتان الإسلامية والعثمانية، مطعّمتان بقوميةٍ تركيةٍ مختلفةٍ عن قومية أتاتورك العلمانية.

صعد هذا النوع من التفكير في ظلّ ارتفاع منسوب الثقة بالذات لدى عموم الأتراك بعد الإنجازات الاقتصادية الكبيرة لعهد العدالة والتنمية. لا تناقض، من هذا المنظور، بين العلاقات المميزة للحكومة التركية مع النظام السوريّ، بين 2004-2011، والدعم متعدد المستويات للثورة السورية على الشريك السابق (النظام). فإذا كان الانفتاح التركيّ على النظام قام على أساسٍ اقتصاديّ، وفقاً لفلسفة صفر مشكلات مع دول الجوار، فالانخراط التركيّ في الصراع السوريّ ضد النظام قام على أساس رهانٍ سياسيٍّ كبيرٍ من شأنه استعادة مجال النفوذ التركيّ كما كان عليه في العهد العثمانيّ.

أما الفكرة الثانية فهي موقف الرجل العدائيّ من فتح الله غولن. كان هذا الداعية الإسلاميّ «المعتدل» لغزاً محيراً بالنسبة لي، فسألت محدّثي عنه على أمل أن ينيرني بمعلوماتٍ لا أعرفها. لكن صاحبي التركيّ الأزهريّ فاجأني بردّة فعله العنيفة. اختفى ذلك المثقف الدمث الودود، وحلّ محله شخصٌ متوترٌ غاضب. لم أكن أعرف وقتها بوجود خلافٍ بين الحكم وغولن، باستثناء تصريح الأخير الشهير تعقيباً على المجزرة التي ارتكبتها إسرائيل بحقّ نشطاء أتراك في إطار قافلة الحرية (2010)، حين قال إنه كان على منظمي القافلة أن يحصلوا على موافقة الحكومة الإسرائيلية قبل انطلاق رحلتهم، تجنباً لما حدث.

قال محدّثي، جواباً على سؤالي، غولن هو عميلٌ لإسرائيل وأميركا! فلما أبديت استغرابي من هذا الاتهام العجيب، ذكّرني بما قاله غولن تعليقاً على مجزرة قافلة الحرية، وبمكان إقامته في الولايات المتحدة (بنسلفانيا). وكأن هذا وذاك دليلان قاطعان على عمالة الرجل!

لم ينقض عام 2013 حتى كانت هذه العداوة المستترة بين تيارين في الإسلام التركيّ قد تحولت إلى حربٍ مفتوحة. حرب استئصالٍ من الطرفين، امتدّت وصولاً إلى المحاولة الانقلابية الفاشلة في منتصف تموز الماضي.

خلال السنوات الثلاث الفاصلة بين بداية تلك الحرب ونهايتها تكبّد الطرفان خسائر كبيرة، فشابت الحكم شائبة فساد، وتلقت حركة غولن ضرباتٍ موجعة، شملت مصادره المالية واستثماراته وشبكته الإعلامية ومؤسساته التعليمية. وبات كلّ من يشتبه بولائه للداعية هدفاً للشرطة والقضاء والإعلام.

حجم التصفيات الجارية اليوم، منذ إخماد المحاولة الانقلابية، يشير إلى أن شبكة غولن أوسع بكثير مما كان يُظن. فإذا أضفتَ إليها شبكته العالمية، كنا أمام ظاهرةٍ مرعبة. فلدى غولن مدارس وجامعات واستثماراتٌ اقتصادية في أكثر من 127 دولة، تطالب أنقرة الآن حكوماتها بحظر تلك الأنشطة، إضافة إلى مطالبتها الإدارة الأميركية بتسليم غولن نفسه.

من المحتمل أن تشكل هذه المطالبة مصدراً لمزيدٍ من الانحدار في العلاقات الأميركية التركية، خاصةً إذا رفضت الإدارة الأميركية تسليمه. ويحفل الإعلام التركيّ باتهاماتٍ للولايات المتحدة نفسها بالوقوف وراء المحاولة الانقلابية التي تتهم غولن «العميل للمخابرات المركزية» -على وصفها له- بقيادتها من وراء البحار.

إنه أمرٌ محيّرٌ فعلاً هذا الصراع الدامي بين طرفين لهما المرجعية الفكرية نفسها: الإسلام المعتدل. كما لا يقلّ غولن «إمبريالية» عن العدالة والتنمية في سعيه لنشر الثقافة واللغة التركيتين في أنحاء العالم. يبدو منطقياً تحليل روشن جكر، الخبير في شؤون الإسلام السياسيّ التركيّ، حين كتب، منذ 3 سنوات، حول أسباب الصراع بين الطرفين فقال إن الحليفين السابقين كانا قد تقاسما الأدوار، بصورةٍ موضوعية، فكانت السياسة من نصيب العدالة والتنمية، مقابل المجتمع المدنيّ لحركة غولن. أما الصراع فقد حدث، وفقاً لروشن جكر، بسبب تطاول الأوّل على المجتمع المدنيّ وطمع الثاني في السلطة السياسية. فكان الصدام مما لا مفرّ منه.

أيها السيّد... العبوديّة تليق بك!

أحمد عيشة

جسّد خطاب حسن نصر الله الأخير، باعترافاته العلنية المتسلسلة عن تلقيه وحزبه-العصابة كلّ أشكال التمويل من إيران، بما فيها من رواتب وسلاح وتدريب وكلّ أشكال المصاريف؛ نقلةً نوعيةً في إعلان تبعيتهً المطلقة للوليّ الفقيه أكثر من تبعيته «للجمهورية الإسلامية».

ليس سراً القول بازدواجية السلطة في إيران، بين الوليّ وأجهزته المخابراتية المتمثلة في الحرس الثوريّ وغيره، وبين مؤسّسات «الجمهورية»، وهي ازدواجيةٌ محسومةٌ لصالح الوليّ بشكل قطعيّ. كما ليس خافياً على أيّ متابع أن حزب الله كان أحد الأدوات التي أنشأتها الأجهزة الإيرانيةً كذراع للحرس الثوريّ في المنطقة ضمن أيديولوجيا ما يعرف بتصدير الثورة، ومهمته الأساسية تفتيت المجتمعات القائمة وخلق مراكز قوىً عسكريةٍ تعيق، بل تمنع، أيّ تطورٍ للمجتمعات والدول ما لم تتوافق مع الطموح الإيرانيّ.

لكن الذي استطاع هذا الحزب-العصابة أن يمرّره خلال السنوات الثلاثين الماضية هو أن يوهم الكثير من «محبّي» النضال ضد الإمبريالية بأنه حزبٌ مقاومٌ ضدّ اسرائيل وداعمتها أميركا، فجذب الكثير من أصوات اليسار العربيّ بشقيه القوميّ والماركسيّ. وعملياً لعب هذا الحزب، في جزءٍ من مسار نشوئه، دوراً في الصراع مع إسرائيل، لا بغاية استرداد الحقوق وإنما بغاية كسب شرعيةٍ محليةٍ ذات طابع وطنيٍّ تغطي الجوهر المذهبيّ والدور الوظيفيّ له.

ولكن ما إن جاءت الثورة السورية ضد أعتى نظام استبداديٍّ في المنطقة، والحليف المزمن للحزب، كما الممرّ الأساسيّ لكل أشكال دعمه من إيران؛ حتى كشف هذا الحزب عن وجهه الحقيقيّ المتمثل في الوقوف ضد تطلعات الشعوب إلى الحرية والكرامة. فعمل على تفتيت المجتمع السوريّ عبر خلق ميليشياتٍ طائفيةٍ بامتيازاتٍ عدّة، لكنها متمحورةٌ حول عقيدة المظلومية الكاذبة، تكشف مدى ادّعاءه عند الحديث عن عدائه -هو والنظام الاستبداديّ- لإسرائيل ضمن ما يُعرف بـ«الممانعة». فأعلن أن معركته الحقيقية هي في سورية، وهي التي ستمهد أو ستفتح الطريق نحو القدس، وبالتالي فإن ما يجري في سورية يندرج ضمن إطار محاربة إسرائيل وأمريكا، كما ذكر السيد-العبد مؤخراً أنه لو وافق بشار الأسد على المخططات الإسرائيلية والأمريكية لتوقفت الحرب في سورية في اليوم التالي! ويؤكد كلامه الهزليّ هذا أنه كلما قصفت إسرائيل مواقع للنظام أو للحزب زاد قصفه لباقي المدن والقرى السورية. فالطريق إلى القدس، كما يتخيله السيد، لا بدّ وأن يمرّ من ريف حلب الجنوبيّ والشماليّ.

فالحزب-العصابة، بعقيدته المعلنة منذ زمنٍ والملتزمة بتوجيهات وتعاليم الوليّ كجانبٍ أيديولوجيٍّ في تشكيله، أتى اليوم ليكشف عن تبعيته الكاملةً للمصالح المذهبية الإيرانية بكونه يتلقى منها كلّ ما يخص عمليات التمويل والتسليح (من المعاش حتى الصواريخ)، وهو الركن الثاني في تشكيل الحزب. أما ثالث الأسّس، وهو الانتماء الوطنيّ، فهو ما لا يعرفه السيد. فلن تتعدّى الوطنية لديه حدود الطائفة التي استطاع بماله وأجهزة الرعب التابعة له انتزاعها من محيطها الوطنيّ وتحويلها إلى جسدٍ غريبٍ يتبع البلد-الأم: إيران. فعبر مسيرته التي تمتدّ لأكثر من ثلاثة عقود، رافقت صعود الجمهورية الإسلامية كقوّةٍ إقليميةٍ محورها العقيدة المذهبية، استطاعا -وضمن دورهما- تفتيت العديد من المجتمعات العربية، وتشكيل هويةٍ جديدةٍ للطائفة الشيعية عمادها الوليّ الفقيه ومصالح الجمهورية الإيرانية، ونزع هذه الطائفة من النسيج الوطنيّ لبلدانها، وخلق حالةٍ من التوتر والعدائية المذهبيتين. ولم تقتصر هذه الطموحات على السكان، بل ذهبت إلى منازعة حتى الأنظمة الموالية، كما يجري في سورية. فطموح إيران وحزبها اللبنانيّ أكبر من مشروع آل الأسد بالحفاظ على السلطة، ويمتدّ إلى اجتياح المجتمع وتغيير التركيبة السكانية والمذهبية للبلاد بعملياتٍ قسريةٍ عنيفة.

ما تجلى في خطاب نصر الله الأخير، من نزع ورقة التوت عن «ممانعته» ونضاله لتحرير فلسطين، بإعلانه أن المعركة الحقيقية والاستراتيجية هي في حلب والبقية مجرّد تفاصيل، إضافةً إلى تفاخره بتلقي الدعم بكلّ أشكاله من «الجمهورية» (طالما في فلوس في إيران، فالحزب قائم)؛ لا يعبّر إلا عن قضيةٍ جوهريةٍ واحدةٍ هي طائفية هذا الحزب الذي تحوّل إلى ميليشيا تقاتل إلى جانب النظام الاستبداديّ وتمارس أبشع أشكال المذابح في حقّ السوريين بأوامر مباشرةٍ من الوليّ الفقيه وحرسه الثوريّ وخدمةً لمشاريعه، وبالتالي رابطاً مصيره بشكلٍ كامل بمصير نظامٍ استبداديٍّ سيزول لا محالة وستزول معه كلّ ميليشيات الحقد الطائفيّ.

لقد كشفت ثورة السوريين أن السيد ليس سوى عبد، وأن الحزب ما هو إلا ميليشيا طائفية!

للرسام الكندي: Kerry Waghorn

سيون انجيل راسموسين بالاشتراك مع زهرة نادر من كابول
الغارديان/ 30 حزيران - ترجمة مأمون حلبي

إيران تُجنّد أفغاناً من الشيعة للقتال في سورية

تقوم إيران في الخفاء بتجنيد مئاتٍ من الشيعة في أفغانستان لكي يقاتلوا مع الأسد. إنها تسحبهم من بلدهم الذي تعصف به النزاعات وتزجّ بهم في حربٍ أخرى لا تلعب أفغانستان دوراً رسمياً فيها. غالباً ما يكون هؤلاء فقراء أو ملتزمين دينياً أو منبوذين من المجتمع، يبحثون عن المال والقبول الاجتماعيّ، وعن إحساسٍ بالمعنى لا يستطيعون أن يجدوه في وطنهم. تجنيد إيران المهاجرين واللاجئين الأفغان ضمن حدودها تمّ توثيقه. غير أن النشاطات الإيرانية المماثلة داخل أفغانستان تمّ التعتيم عليها. فإيران تنكر استخدام «أيّ نوع من الإغراءات أو القسر» في تجنيد الأفغان للقتال في سورية، وفقاً لمتحدثٍ باسم السفارة الإيرانية في كابول. لكن تحقيقاً قامت به الغارديان يكشف عن كيفية إقناع إيران للأفغان بالذهاب إلى الحرب، وعن الدوافع التي تحثّ أولئك الرجال على السفر آلاف الأميال ليلتحقوا بمعركةٍ قد لا يعودون منها.

يلعب أشخاصٌ على شاكلة المدعو جواد دوراً أساسياً في عملية التجنيد هذه. جواد، الذي يعمل شرطياً في النهار و«وكيل سفرياتٍ» -كما يسمّي نفسه- عندما تنتهي خدمته كشرطي، قال إنه عمل لمدّة عامٍ كوسيطٍ لصالح الحرس الثوريّ الإيرانيّ عندما شكّل، في عام 2014، ميليشيا شيعيةٍ أفغانية، فرقة فاطميون، لتقاتل إلى جانب القوات الحكومية السورية.

من «مكتب السفريات» الذي يخصّه، الواقع في الطابق الثاني من مبنىً عاديٍّ يضمّ مكاتب، عمل جواد على ربط الرجال الراغبين في القتال مع السفارة الإيرانية، التي كانت تساعدهم بخصوص تأشيرات الدخول والسفر، وتدفع عمولةً لجواد. يحصل المجنّدون على إذن إقامةٍ في إيران، وعلى مرتبٍ شهريٍّ يبلغ 500 دولار. يقول جواد: «معظمهم يذهبون إلى سورية من أجل المال، وآخرون يذهبون ليدافعوا عن الضريح المقدس». تحوي سورية عدّة مواقع شيعيةٍ مقدسة، وفي طليعتها مسجد السيدة زينب قرب دمشق، الذي كان نقطة تجمّعٍ للشيعة الذين يريدون أن يدافعوا عنه في وجه المتشدّدين السنّة، كتنظيم الدولة الإسلامية.

في أوّل مرّةٍ قابلت فيها الغارديان جواد، كان يستعدّ للسفر إلى سوريةٍ بنفسه. كانت داعش قد اختطفت 12 مقاتلاً أفغانياً في إحدى ضواحي دمشق. كان جواد هو من جنّدهم، وكانت عائلاتهم تطالبه بالمساعدة لإطلاق سراحهم حسب قوله. عندما عاد من سورية بعد شهرٍ كان واضحاً أنه يشعر بالصدمة. قال، وهو يُظهر صوراً من دمشق، إنه فاوض على حرية الرهائن، لكنه أيضاً شاهد بنفسه كيف أنّ «الإيرانيين يستخدمون الأفغان كدروعٍ بشرية». قال إنه سيكفّ عن العمل كوسيطٍ لصالح الإيرانيين. «أشعر بالخجل لأنني أرسلت أولئك الناس».

من المحتمل أنه يوجد سببٌ آخر لتغيّر موقف جواد. فلدى عودته من سورية أوقفته وكالة الاستخبارات الأفغانية مدّة يومين. «قالوا لي: لا تبع إخوتك لبلدٍ آخر».

بسبب عدم توافر أرقامٍ رسمية، تتباين التقديرات بشكلٍ كبيرٍ حول عدد الأفغان الذين يقاتلون في سورية. إعلام الدولة في إيران، الذي لا يعترف بالتورّط الإيرانيّ المباشر في عملية التجنيد، يقول إن 20000 من الأفغان يقاتلون في سورية. وفقاً لأمير طوماج، وهو باحثٌ في مؤسّسة الدفاع عن الديمقراطيات، تمّ مؤخراً رفع تشكيل فاطميون من مستوى لواء إلى مستوى فرقة، وعادةً ما يكون عدد أفراد الفرقة أكثر من 10000. آخرون يقولون إن هذه الأرقام مبالغٌ فيها. علي الفونيه، وهو محللٌ إيرانيٌّ مستقلٌّ مقيمٌ في واشنطن، يُقدّر عددهم ببضعة آلاف. ويُضيف أنه قُتِل على الأقل 334 منهم منذ أيلول 2013. هناك قانونٌ إيرانيٌّ جديدٌ يتيح للحكومة منح الجنسية لعائلات الأفغان الذين يُقتلون في سورية. ومن المُرجّح أن هذا القانون هو محاولةٌ لتشجيعهم على القيام بمهماتٍ أكثر خطورة، ولجذب متطوّعين، حسب ما يقول طوماج. بالنسبة إلى إيران، امتلاكها ميليشيا أفغانيةً مواليةً قد يخدم هدفاً أطول أمداً خارج سورية. يقول علي: «من الواضح أنه مما يخدم مصالح الحرس الثوريّ الإيرانيّ تدريب أفغانٍ شيعة يستطيعون في ما بعد أن يقاتلوا حركة طالبان أو الجماعات

السنّية الأخرى في أفغانستان بعد الانسحاب العسكريّ الأميركيّ من البلاد».

يزداد تعقيد تقدير عدد المقاتلين الأفغان لأن جثث القتلى نادراً ما تُعاد إلى وطنها للدفن. بالإضافة إلى ذلك، يتظاهر بعضهم أنهم سينتقلون إلى إيران، قبل اختفائهم. إحسان وفهيم كانا صديقين من مزار شريف. أخبر كلٌّ منهما والديه العجوزين أنه ذاهبٌ إلى طهران للعمل. بُعيدَ رحيلهما، بدأ إحسان يرسل -عن طريق الفيس بوك- رسائل وصوراً من سورية لرسول، أحد أصدقائه. يقول رسول: «كان شخصاً متديناً جداً. كان يتحدث دائماً أنه من واجبه الدينيّ الذهاب إلى سورية». في بدايات أيار، وبعد مقتل 80 عنصراً موالياً للحكومة -من بينهم عشرات الأفغان- في إحدى معارك السيطرة على خان طومان قرب حلب، أرسل إحسان رسالةً فيسبوكيةً لرسول، لم يكن فيها ذكرٌ لصديقه فهيم. والدا فهيم، اللذان استبد بهما القلق، قررا الذهاب إلى إيران، وما زالا يبحثان عنه. حاول بعض السياسيين الأفغان التدخل. نظير أحمد زاي، عضو برلمان، قال إن إيران تُذكي نار التوتر بين السنّة والشيعة من أجل تأكيد سيطرتها في أفغانستان. «سياسة إيران هي خلق الانقسام بين المسلمين. يريدون لأفغانستان أن تصبح مثل سورية». ويضيف أنه شاهد قائمةً تضمّ أسماء 1800 أفغانيٍّ تمّ تجنيدهم من كابول فقط. مع ذلك، رفض بعض المحللين هذا التقدير معتبرين أنه مبالغٌ فيه.

بالإضافة إلى وكلاء مثل جواد، هناك مزاعم أنّ الحرس الثوريّ الإيرانيّ استخدم مساجد في مدن أفغانية كأماكن للتجنيد. يقع أحد هذه المساجد في داست بارشي، وهو حيٌّ في كابول، شيعيٌّ بغالبيته حسب ما يقول أحمد زاي، الذي رفض أن يسمّي المسجد. قال أحمد إنه بعد أن أرسل فريقاً من المحققين توقف المسجد عن التجنيد. هيثم المالح، عضو الائتلاف الوطنيّ السوريّ، قدّر عدد الأفغان الذين يقاتلون مع قوات الأسد بـ8000 مقاتل. اتخذت الاستخبارات الأفغانية إجراءاتٍ صارمةً لمنع بعض عمليات التجنيد، لكنها كانت شديدة الحذر، وفقاً لما يقوله علي محمد، وهو محللٌ أمنيّ. يقول علي إنه بالنظر إلى أن مزيداً من اللاعبين أصبحوا منخرطين في سورية، فقد أصبح الوضع أكثر تعقيداً. ولأن العلاقات مع جارتها الأخرى القوية، باكستان، مريرةٌ بشكلٍ غير عاديّ، فإن كابول لا تستطيع تحمّل أعباء معاداة طهران أيضاً.

بالنسبة إلى محسن، 24 عاماً، كانت الحرب في سورية فرصةً للقتال في سبيل القضية المُحقّة. يقول إنه أثناء معركةٍ مع مقاتلي تنظيم الدولة الإسلامية خارج حلب شاهد الدليل على أنّ الله كان في صفه. كان القتال قد احتدم دون توقفٍ مدّة 24 ساعة. محسن، الذي كان منهكاً، أسند رأسه إلى الخلف على جدارٍ فمالت خوذته إلى الأمام. في تلك اللحظة اخترقت رصاصةٌ مقدّمة خوذته فأخطأت جبهته، التي كان قد كتب عليها «يا زينب». بقي محسن حياً، وبعد أيام ساعد فصيله في فكّ الحصار الذي دام أربع سنوات عن نبّل والزهراء، وهما قريتان شيعيتان.

يقول محسن للغارديان: «كان هدفي الدفاع عن الشيعة الأبرياء في سورية. داعش لا تظهر أيّ رحمة. إنهم يقتلون الأطفال والشيوخ، يقتلون الجميع». في أحد مقاهي كابول أظهر محسن -الذي تمّ تجنيده في إيران- صوراً له في سورية وهو يرتدي ملابس عسكرية، والكحل يظلل عينيه. أثناء رحلته الثالثة إلى سورية، في شباط الماضي، جُرح ثلاث مرّات. ما تزال إحدى الرصاصات عالقةً في فخذه. «أنا لا أفعل أيّ أمرٍ خاطئ. الأماكن المقدسة تعود لنا ونحن سندافع عنها».

بالرغم من معارضة الأسرة والاستخبارات والسياسيين، من المرجح أن يستمرّ الأفغان الشباب بالاندفاع نحو سورية طالما بقيت الآمال بمستقبلٍ آمن وزاهر في الوطن غير مبشّرة. «الذين يذهبون لا يتركون خلفهم شيئاً، لقد فقدوا كلّ أمل»، يقول يونس، وهو خريجٌ جامعيٌّ عاطلٌ عن العمل في كابول، ويعرف عشرين شخصاً ذهبوا إلى سورية من إيران، من بينهم اثنان من أبناء عمه وأحد أعمامه، وقد قُتِل الثلاثة. جميعهم كانوا مدمني مخدراتٍ أو كانوا يعانون من مشكلاتٍ عائليةٍ عميقة، وفقاً لمحسن. في مواجهة التمييز والإفراط في تعاطي المخدرات والوصمة التي ترافق ذلك، يرى البعض أن الحرب هي السبيل الأوحد لفعل شيءٍ يتمّ باختيارهم. قال يونس إن الذهاب إلى سورية هو أقصى عملٍ من أعمال اليأس. «هناك، إما أن يموتوا ويصبحوا شهداء، أو سينالوا حياةً أفضل مع وجود راتبٍ شهريٍّ وإقامةٍ في إيران. إنهم يريدون بدايةً جديدة».

سيرة خلف المفتاح

مثل غيره من معظم «الرفاق»، لا يملّ خلف المفتاح من نفسه، ولا من أربعين عاماً وأكثر قضاها في صفوف حزب البعث، قبل أن يتوقف قطاره أخيراً عضواً في القيادة القطرية، وهي المحطة النهائية في رحلة صعود البعثيين، أمام حصرية إشغال موقع الأمين العام بحافظ الأسد. لم يجلب الوقوف في هذا المحل واستنفاد فرص الترقي أي أسىً على قلب المفتاح، إذ يؤمن البعثيّ أشد الإيمان بمسلّمات الصعود وذراه المتاحة إيمانه بأبدية الأسد ملكاً على هذا القطر. ورغم تبدّد الآمال بالمزيد، وتآكل النفوذ المفترض لموقعه الحاليّ، فضلاً عن تفاهة المهمات التي يكلف بها بين حين وآخر؛ لا يبدي المفتاح مقدار ذرّةٍ من تذمر، ولا تخطر على قلبه كآبات الخواء لمن أمضى دهره في قاع الدناءة. بل إنه سعيدٌ وحيويٌّ بما تبقى لديه من أحلام، وهي أن يصمد لأطول مدّةٍ ممكنةٍ في موقعه القطريّ، وأن يحرز أكبر قدرٍ من الأموال المنقولة وغير المنقولة تؤمّن له تقاعداً مريحاً، وأن يضع ابنيه وابنتيه الشبان على السكة، وفق هداه، إلى المستقبل.

ولولا فضيحةٍ كبرى ضجّت بها محافظة الرقة كلها أيام كان مديراً للمركز الثقافيّ فيها، وأخرى حين تسلم إدارة مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر في دمشق، وسواهما من الفضائح الصغيرة والروتينية في سير المسؤولين البعثيين، مثل رشوةٍ من هنا أو تزوير شهادة دكتوراه من هناك؛ لغدا تاريخ المفتاح العلنيّ نظيفاً. فالرجل حذرٌ إلى حدود الجبن، كما يصفه أهل الرقة الخائبون دوماً من توسّطه في أيّ شأن. وهو ماهرٌ في اقتناص اللحظة المناسبة، سرقةً أكانت أو تحطيم منافس بتقرير ثقيل يعرف إلى أين يُرفع، أو في التقرّب من شخص أرفع شأناً في حاشية الأسد. وعلاوةً على الحذر والمهارة يأتي دأبه العنيد ليتوّج أسباب «نجاحه». دأبٌ تجلى مع البكالوريا الحرّة التي نالها بعد جهدٍ وتعليم مهنيٍّ وتعثر، ثم في معهد إعداد المعلمين منتصف سبعينيات القرن الماضي، ثم المدرسة التي صار فيها مديراً، قبل أن ينطلق أخيراً كـ«مثقفٍ» مداومٍ على الكتابة للدوريات والصحف الرسمية كلها، بالتزامن مع الترقيات الوظيفية والحزبية.

ومن بين المحطات التي مرّ بها يبدي المفتاح تقديراً خاصاً لمنصبه في إدارة المركز الثقافيّ، إذ أبدع في انتقاء بعض الضيوف المهمين بالنسبة إليه من داخل سورية ومن خارجها في بعض المرّات، وفي توثيق الصلات بهم. خاصةً وأن بعض هؤلاء كانوا من رجال الدين الشيعة أومن مسؤولي حزب الله، أثناء سعيهم المموّل والمحموم لنشر مذهبهم في الرقة في العقد الماضي. وبالطبع لم يكن خلف المفتاح شيعياً كما شاع بين الرقاويين، ولا سنّياً كذلك، بل كان غير مهتمٍّ بأيّ اعتقاد، سوى الركض لاهثاً نحو الأمام. وحين يجد الوقت، والهامش المضمون للغاية، كان يلهو باصطياد بعض المثقفات الحزبيات التائهات.

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

/3aynAlmadina
@3aynAlmadina

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع

أطفال حلب

عدسة حليم كاوا - خاص عين المدينة